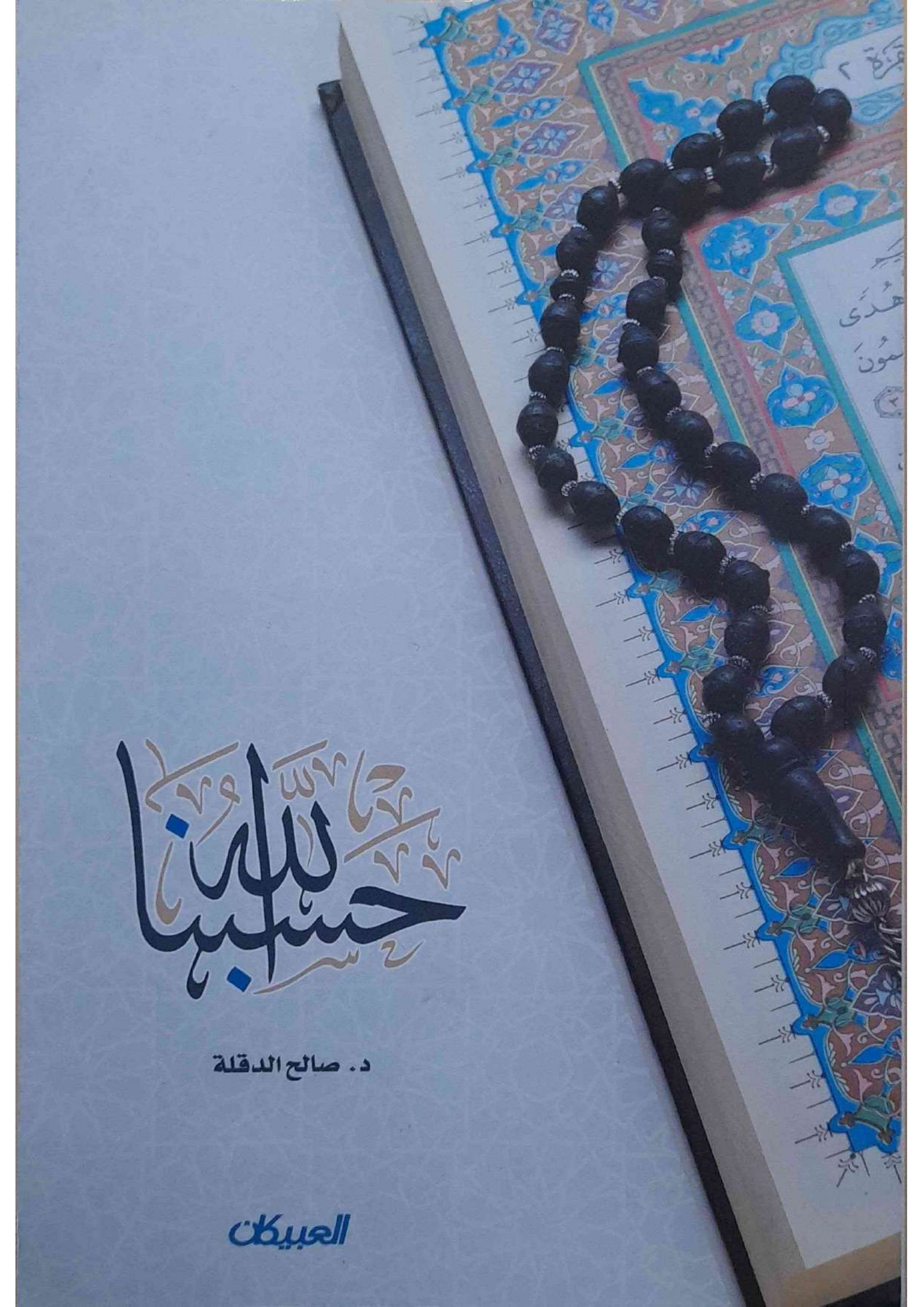
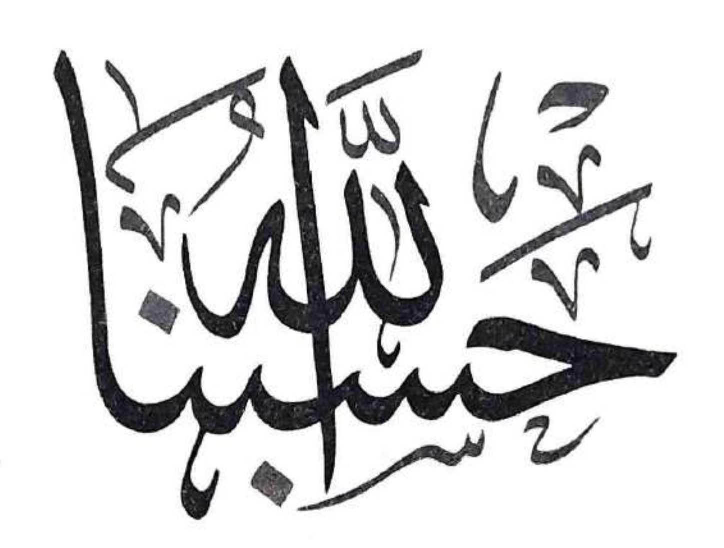
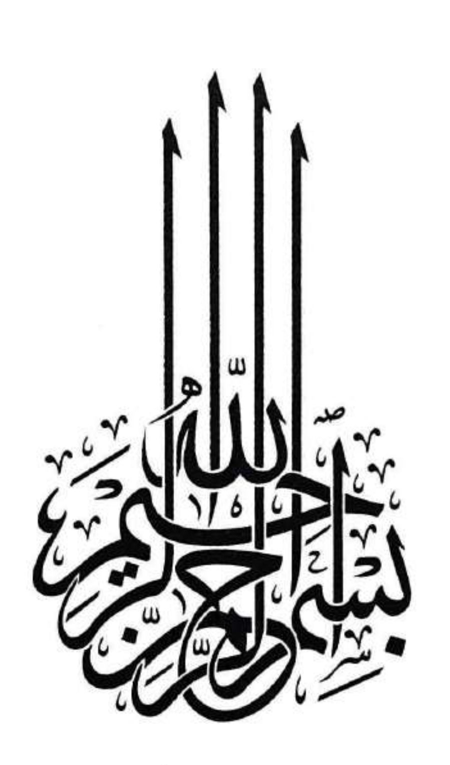

حسبنا الله
د. صالح الدقلة
العبيكان



تأليف

د. صالح بن أحمد الدقلة الزهراني


بسم الله الرحمن الرحيم

●●● إلى...... الذين قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل

●●● إلى...... الذين لا ناصر لهم إلا الله

●●● إلى...... الذين يبيتون وحاجتهم في صدورهم

●●● إلى...... الذين يقولون متى نصر الله

●●● إلى...... الذين تحملوا رسالة الخير

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

ففي زمن الذرة والرقمنة، والذكاء الاصطناعي، والتكنولوجيا المتطورة والاتصال الفضائي، لم يزل الإنسان يبحث عما يلوذ به حين تحل به الأزمات، والمصائب، والمحن، والابتلاءات، والكوارث.

ولم تقدم كل هذه الطفرة الرقمية من الخدمات ما يمكن أن يسمى طفرة إنسانية، تمكّن الفرد من الحصول على السعادة بالسرعة، والسهولة، التي يحصل فيها على الصيانة، والدعم الفني لهاتفه الذي في يده.

وبقي صوت الروح، وصوت الإنسان المخلوق الأرضي البسيط، هو الصوت الذي يمكنه مخاطبة الإنسان المكتئب، بما يرفع عنه الكآبة ويخلصه من بلواه.

ولا يوجد منهج أو نظام يطابق الطبيعة البشرية، والمنظومة الكونية، والتركيبة النفسية، والقوى الداخلية في الإنسان، مثل منهج الخالق الذي خلق وهو بما خلق أعلم.

لذا جاءت هذه المجموعة من المقالات لتساعد الإنسان كيف يتمتع بالكفالة الإلهية ويستفيد من المنهج الرباني في العناية بالقلوب وإصلاحها وحل مشكلات النفوس، وصيانتها. ولقد مررنا ومر غيرنا بكثير من المعاناة والظروف القاسية، والحالات الحرجة ولم نجد أن شيئا من هذه المعاني أفلس، أو تبين أنه غير نافع على المستوى النفسي والعملي. فليست هذه الكلمات خيالات كاتب يحتسي قهوته، ثم يكتب؛ بل بعضها كتبت في ظروف قاسية؛ أوجز وصف لها (متى نصر الله).

فيسّر الله كتابة كل ذلك في أفلاك (حسبنا الله ونعم الوكيل).

حسبنا الله: يعني كفايتنا هو.

نعم الوكيل: يعني أنه تعالى خير من نلوذ به ونعتمد عليه ونلتجئ إليه فإذا توكلنا عليه فهو كافينا ولا نحتاج إلى سواه.

وحين نعتمد منهجية (**حسبنا الله، ونعم الوكيل**)؛ فإن هذا يعني أن يكون هو سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مصدر التوجيه، وهو وحده الجهة التي إليها الفرار، وأننا لن نساوي بين ما يأتي منه، وما يأتي من غيره طالما أنا نقول (حسبنا الله).

وحين نؤمن بانه هو تعالى (نعم الوكيل)؛ فإننا ملتزمون بأن نرضى عن كل أفعاله، ونثق في كل كلامه، ونؤمن بكل ما يأتينا منه، لأنه الله ذو الكمال، والجلال، والجمال، والرحمة، العليم الحكيم القدير، وإليه يرجع الأمر كله.

ومن أجل أن نتصرف خلال الأزمات وفق (حسبنا الله ونعم الوكيل)



فهناك مجموعة من المعاني، والمفاهيم، والمبادئ، والأقوال، والأفعال التي يجب علينا الوعي بها وتطبيق ما تقتضيه من عمل.

ستجد أخي القارئ في هذه المجموعة؛ شرحا لكلام الله، وكلام رسول الله، ومواقف من السيرة النبوية، ومواقف من سير الرسل والأنبياء الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقصص من القرآن الكريم؛ تم تحليلها جميعا لكي تُظهر للقارئ الرسالة التي تتضمنها، وتناسب حال من يعانون البلاء والظلم والشدة والمعاناة.

ليس المقصود من هذه المقالات استيعاب كل التفاصيل العلمية، والشرعية، والنفسية، والعملية، بل المقصود إحداث نقلة قلبية تجاه الأزمات، تعتمد هذه النقلة على السعي لمعرفة مراد الله من العبد حين يبتليه، ومراده منه حين ينعم عليه.

هذه المجموعة موجهة لكل مبتلى يؤمن بالله العظيم، وهي موجهة في بعض المواضع للذين أوذوا لأنهم قالوا ربنا الله، أو لأنهم تحملوا مهمة السعي لدلالة الخلق على الله، أو للذين نذروا أنفسهم لإدخال السرور على عباد الله.

وأخيرا:

- أغلب ما في هذه المجموعة من معانٍ هي فتوحات فتح الله بها علينا على ألسنة علماء، وأئمة لقيناهم، أو صحبناهم، أو عملنا تحت رئاستهم، أو قرأنا لهم، أو سمعنا لهم، أو رجال ابتلاهم الله فهداهم للقول الثابت، فثبتونا بكلامهم، والقليل الباقي كان

فيضا من كتاب الله منّ الله به في لحظة تأملٍ في شدة أو كُربة، لعل الله أن ينفعنا بها.

- لا يوجد عمل بشري لا يعتريه النقص والخطأ، وأستغفر من خطئي، وجهلي، وأساله أن يكتب لهذه المجموعة القبول عنده، والنفع للخلق. إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله.

- للكلام تداعيات وقد تعدد التفسيرات، فكل عبارة، أو كلمة، أو فكرة، في هذه المجموعة، يُفهم منها ما خالف شرع الله فإني أحد رجلين:

- رجل يقصد ما يقول فأتبرأ من قولي وأرجع عنه متى ما فهمت الخطأ الذي فيه.

- رجل لا يقصد الا الحق، لكن العبارة تحتمل عدة معانٍ فعلى القارئ أن يحمل كلامي على الفهم الصحيح الذي يتوقعه من أخٍ له يريد الخير.

إذا لم تفهم عبارة ما فتجاوزها، فقد تجد ما فيها من معنى في موضع آخر بصيغة مختلفة نظرا لتداخل المواضيع وتشابه المواقف وتكامل المعاني.

مكة المكرمة

٩ شعبان ١٤٤١هـ

المؤلف

هدى للمتقين

عندما تثور عاصفة هوجاء فإنها تحمل في طياتها العديد من التحديات فتقتلع الأشجار، وتهز المباني وتحطم السدود وتخطف كل ما تمر عليه في دوامتها اللولبية، وتعصف بالمطر وتحد من الرؤية فيهلع الناس ويخافون من هول العاصفة.

حينها تقل فرص التركيز فالأذهان مشتتة والفوضى في ازدياد؛ هناك ينصت الجميع لصوت المذياع أو أي وسيلة إرشاد من أجل تلقي المعلومات والتعليمات والنصائح وكل ما يساعد الناس الحائرة لكي تتصرف بشكل أفضل لتتجنب الكارثة وتقلل من الخسارات في الأرواح والأموال.

وفي خضم الأزمات والهموم التي تصيب الناس في الحياة يحدث الشي نفسه فيتعرض الإنسان لعاصفة (نفسية وذهنية) مماثلة تفقده السيطرة وتجعله يبحث عن صوت يرشده لكي ينجو مما عصف بذهنه وقلبه وتسبب له في اضطراب سلوكه ومشاعره.

وكما ينحني الواحد منا أمام العاصفة الكونية فإنه أيضا ينحني أمام العاصفة النفسية والانفعالية والتي تمنعه من فتح عينيه فلا يصبح لديه أي فرصة للرؤية إلا عبر نافذة القلب

والشعور ومن خلال عالمه الداخلي. وهنا يبدأ في اتباع تعليمات ومعلومات تنبعث من داخله ويستسلم الإنسان للخارطة الداخلية التي تكونت عبر السنين ورسمها هو عبر ثقافاته وتجاربه وقدراته إن أقصى ما يمكن أن تقدمه لك تلك الخريطة من حلول ومخارج لن يتجاوز ما تم برمجته فيها سابقا فحين تثور العاصفة لا مجال للتدريب على مالم يتم التدرب عليه قبل العاصفة. فحين العاصفة المجال متاح فقط لتنفيذ التعليمات، والاستفادة مما سبق من معلومات، والهروب إلى داخل الملاجئ. وكم هي صدمة كبيرة حين لا نجد لنا مكانا في الملاجئ، أو لا نجد ملجأ نتجه إليه.

وفي عاصفة الحزن والبلاء والظلم المهيمن سوف نهرب جميعا إلى الداخل لكن داخل نفوسنا وداخل ذاكرتنا وسوف ننحني ليس للبكاء فقط بل لنسمع صوت الوجدان، وكم هي صدمة كبيرة حين لا يجد الوجدان شيئا ليقوله لنا لأنه لم يتلق شيئا مفيدا قبل العاصفة وفاقد الشئ لا يعطيه.

تأمل أخي قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١-٥.

في القرآن الكريم ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ توجيه دقيق وواضح وآمن فليس في كلام القرآن شك، وكما يثق الناس في إرشادات الأمن خلال العاصفة دون تردد ولا شك ولا مناقشة؛ فهناك أناس في عاصفة البلاء يسمعون صوتا خاصا كأنه لهم وحدهم يهديهم يرشدهم ويطمئنهم ويبعث فيهم التفاؤل ويوفر لهم الأمان. إنه صوت الإيمان الهادي.

كما تركهم الناس وحدهم ليواجهوا آلامهم وكما تخلى عنهم الجميع فإن صوت الوحي يختصهم اليوم وحدهم ويهمس لقلوبهم دون غيرهم ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إن هداية الوحي تخاطب الجميع ورسالة اليقين تبث للكل، لكن لا يستقبلها إلا الذين اعتادوا أن يستقبلوها قبل العاصفة، وبرمجوا قلوبهم على تلقي كلام الله باليقين والثقة والتصديق والتسليم فكانوا متقين، والهدى للمتقين.

هؤلاء وحدهم الذين ينحنون ليسمعوا نداء الوجدان فلا يتفاجؤون أن وجدانهم أخرس بل سرعان ما تتحدث إليهم قلوبهم وتلهمهم آيات ربهم وتهديهم. في هذه الحالة لن تتوقف الدموع لكن طعمها سوف يتغير ولن يتوقف البكاء لكن صوته سوف يتغير فلن تسمع جؤارا بل سترى اكتافا تهتز وصدرا يرتجف وأعينا تستطعم حلاوة الدمع فرحا بصوت الحق الذي يتدفق بين الضلوع، ويتحدث إلى نفس الشخص ولكن بكلام الله وهداه.

هل سمعت بصوت يحتضنك وهو في داخلك وبين ذراعيك، إنه صوت ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ليس في العاصفة ذكرى جميلة وليس في المصائب مواقف ممتعة لكن هدى القرآن الذي تكون في قلوبنا عبر السنين سيجعل ليالي البلاء مضيئة وبردها القارس دافئا وصوت رياحها العاتي هادئا وسنحتفظ بذكريات جميلة كتبتها قلوبنا أثناء العاصفة وسنخرج بعد الأزمة لنرويها للذين خرجوا منها كالمجانين.

أخي، أختي من ينبوع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] نرتوي ونغذي قلوبنا بمنازل اليقين حتى لا نجد قلوبنا صامتة حين نهرب إليها ونحني لنسألها.



(١) سورة الفاتحة، آية: ٥.

يؤمنون بالغيب

هل ستكفينا رسالة من الله نجدها في كتاب الله؟؟

هل فعلا سنجد في رياض القرآن ما يغنينا ويشفي صدورنا؟

الجواب: سوف نجد في في أفكارنا الداخلية التي بناها القرآن خريطة إرشادات واضحة ومفهومة ويمكن تصورها وسنجد أيضا أن هناك أشياء ليس لها تفسير وليس لها أي مبرر وحينها سنقبلها أو نرفضها.

فقد نرفضها لأنها لم تقنعنا أولم تكن واضحة المعالم أو محسوسة لنا ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[1].

وقد نقبلها لكونها مأمونة المصدر تحت شعارالثقة فقط كما يتقبل المستثمر الحذر توجيهات الخبير البارع في

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٩٠-٩٤.

(البورصة) فيجازف بماله بناء على علم الخبير وثقته في علمه ونصحه فقط. وحين يقبل المؤمن ما يثبت عن الله فإنه إنما قبله ووثق به بسبب ثقته في المصدر ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولكونه اكتفى بالله هاديا ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾[1].

فحين نقول (حسبنا الله ونعم الوكيل) فمعناه أنه تعالى كاف لنا.

فسيكون حسبنا قوله عن كل قول.

وحسبنا خبره عن كل خبر.

وحسبنا علمه عن كل علم.

وحسبنا قدرته عن كل قدرة.

فمن لوازم قولنا (حسبنا الله) أن نتعامل مع الخبر الصادر عن الله بيقين تام وثقة مطلقة وطمأنينة راسخة.

في خضم الأزمات والأحزان والكوارث والمهددات سيكون هناك مدخلات كثيرة نتعامل معها ونعالجها بمعنى أننا سنقع تحت تأثير ريح عاصف من الأفكار والظنون والتوقعات والتحليلات وسنكون في حيرة كيف نتعامل معها وكيف نرتب أذهاننا وإين طرف الخيط الذي يحل اللغز ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن

(١) سورة الإسراء، آية: ٩٦.

فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾[1].

وسنهدأ قليلا لنبحث أين هي الأفكار النيرة وإين هي الأوهام والأفكار المضللة وسيصاب الذهن بالإنهاك من شدة التفكير والخواطر لكن بعد هدوء عاصفة الصدمة سنجد أن هناك معلومات قليلة لكنها عظيمة الأثر لا ترهق الذهن ولا تشتت التفكير معلومات من عالم الغيب ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾[2].

إنه عالم ليس بيننا وبينه أي رابط سوى رسول يبلغنا ويخبرنا عنه، فما هو هذا العالم؟

إنه عالم الغيب الذي يصحح فوضى عالم الشهادة.

إيماننا بالغيب هو إيماننا بصحة نبأ أو خبر.

إيماننا بصدق موعود أو وعيد.

إنه حين تتعلق نفوسنا ببشرى أو أمل أو جذوة من شهاب قبس يكذب كل الظنون ويبدد كل الأوهام، ويبتلع كل التهديدات، ويصحح كل التحليلات، ويحدد الخيارات التي ينبغي أن نسلكها والمشاعر التي ينبغي أن نشعر بها، والأعمال التي ينبغي

(١) سورة الأحزاب، آية: ١٠-١٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤.

القيام بها وتحسين جودتها ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

لم يكن الجبروت الذي يصب عذابه صبا على عمار بن ياسر ووالديه يعطي فرصة لأن تلتئم الجراح أو تهدأ الآلام، ولم يكن قهر والإرهاب اللفظي والمعنوي الذي يتعرضون له ليدع الأفكار تلتقط أنفاسها لتقاوم إرادة التقزيم والتحقير والتسفيه من الكفار، ولم تكن المشاعر لتجد الفرصة للتعافي وتنمو في مثل هذا الجفاف الإنساني والمعاملة القمعية.

لكن رغم كل هذه الظروف التي تصيب القلب بالتصحر وتصيب التفكير بالشلل نجد أن جرعة واحدة من (الإيمان بالغيب) تصنع للمستضعفين بيوتا محمية تمكنهم من استعادة ظروف الحياة؛ جريان مياه الأمل ونمو الأفكار واخضرار النفس واستقامة جذع الصبر وتحدي الظروف. يحدث كل ذلك حين يمر بهم النبي ﷺ فيقول: «صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»، هذه الجملة القصيرة التي لا تكلف ثوان معدودة كفيلة بأن تلغي كل نتائج الجبروت كما وكيفا. فقط حين يتلقون هذا الوعد «فإن موعكدم الجنة» بيقين ويؤمنون بهذا الغيب كما يؤمنون بالمحسوسات من حولهم.

عندما يشعر المستضعفون والمقهورون والحزانى والثكالى أن

(١) سورة البقرة، آية: ٣.

هناك وعد صادق وغيب متيقن فيؤمنون به ويتصرفون وفق ذلك الإيمان ويقبلون صفقة الصبر المربحة فلا يوجد قوة على وجه الأرض يمكنها أن تخترق النفوس طالما أن تلك النفوس تؤمن بالغيب المتعلق بتلك القضية والسنة المنبثقة منها.

تلك النفوس لا تقبل الشك في وعد صدر عن الله في مقابل وعيد من سواه ولا يغريها وعد من غير الله في مقابل وعيد ثبت عن الله.

إن الحالة الوحيدة التي يتحطم فيها حصن الأمان النفسي حين يتسلل الشك إلى القلوب ويتهتك سياج اليقين فيدخل لفح الهجير وريح السموم لتجفف نبع الأمل وتحرق جذع الصبر.

حين تسطع شمس اليقين وتمطر السكينة تنبت الأرض، وتورق الأغصان، وترجع البلابل المهاجرة وتعود للحياة زينتها ونبدأ في العناية بالأزهار والثمار لنجمع المحصول لشتاء قادم وعاصفة متوقعة سوف نحتمي منها في ملجأ اليقين والإيمان بالغيب وقول حسبنا الله ونعم الوكيل.

لنا عند الله موعود نحن بانتظاره كأننا نراه؛ ألا إن نصر الله قريب فكلما زاد القهر زاد يقيننا بالغيب الذي وعد به ربنا وأخبرنا به نبينا، وإن الله لمع المتقين.

وروى البخاري في صحيحه قصة المرأة التي جاءت إلى

النبي ﷺ تشتكي (الصرع) وهو مرض يصيب الأعصاب فيتسبب في حدوث نوبات من الصرع تتكرر بين وقت وآخر.

لقد جاءت وليس لها حل تتصوره إلا أن يزول ما بها وتعود لتعيش حياتها كبقية الناس فلما عرضت حاجتها على رسول الله ليدعو لها بالشفاء قال لها ﷺ: «إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك»؛ فأصبحت بين خيارين خيار الشفاء الآن وانتهاء المعاناة والخلاص من الأزمة. وخيار آخر وهو بقاء الابتلاء وبقاء المرض لكن مع إيمان بالغيب ويقين بموعود حق الا وهو الجنة. فماذا اختارت؟

فقالت: أصبر؛ فقالت إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف فدعا لها. لقد تكفل إيمانها بالغيب بتغيير نظرتها لمعناتها لقد تغيرت استعداداتها النفسية حتى تكيفت من داخلها وتقبلت المرض واستطاعت أن تجمع بين إمكانية الحياة في وجود المشكلة.

كانت أزمتها أنه لا تتصور الحياة في وجود الصرع ولقد تجاوزت هذه الأزمة فقط بلحظة يقين وحالة انتظار للنهاية التي ستلغي كل الآلام وتنهي كل المتاعب إنها الجنة.

أخي أختي الذين يعانون المرض وينتظرون الشفاء.

والظلم والضعف وينتظرون الخلاص، أو أي معاناة تحزنك أو تثير مخاوفك أو تطيل همك.

لا نطلب منك أن تتخلى عن رغبتك في كشف ما أصابك لكن لعلك تتوقف عن ملاحظة مشكلتك وتبدأ بملاحظة الفرصة التي فيها خاصة تلك الفرصة التي ستزفك إلى الجنة.

ثق في الذي ابتلاك أنه لن يدعك. طالما أنك فررت منه إليه، ولذت به من قدره الذي قدره عليك، واستهديته ليرشدك إلى طريق نجاتك وتغيير حالك.

أمامنا خياران إما الجزع وسيستمر البلاء أو تقبل الابتلاء والتصرف برضا عن الله بما قسمه الله، فيهون على نفوسنا ثقل البلاء وتخف على مشاعرنا ضراوة الألم ونتلذذ بوعد من الله ننتظره فما أجمل أن يكون لدينا مع الله موعد.

ولتأمل وصية النبي ﷺ لبعض صحابته الذي طلب أن يوليه الإمارة:

وعن أبي يحيى أُسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلا من الأنصار قال: يا رسول الله، ألا تستعملني كما استعملت فلانا؟ فقال: «إنكم ستلقون بعدي أثرةً، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

أجابه بجواب فيه وعد لا يتقبله إلا من يؤمن بالغيب ويرضى بوعد رسول الله ﷺ.

عجبا لإنسان ينشرح صدره لوعود الخلق وهم لا يملكون

في المستقبل شيئا ثم يصرفه الشيطان عن وعد الخالق ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[١]، وعنده مفاتيح خزائن السموات والأرض وبيده مغاليق الخير والشر ومفاتيحها، فما يفتح من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده.

قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢].

يؤمنون بالغيب:

يؤمنون بالوعد فينتظرونه، يومنون بالوعيد فيحذرونه.

يؤمنون بالآخرة فيسعون للفوز فيها وذلك هو الفوز المبين.

يؤمنون بربهم فيقولون إنا لله وإنا إليه راجعون.



---

(١) سورة الأنعام، أية ٥٩.

(٢) سورة الشورى، أية ١٢.

متى نصر الله؟

الإحساس بالوقت ليس مقياسا دقيقا لمعرفة طول الزمان وقصره. فمن يعيش الانتظار يطول عليه الوقت وتمر عليه الدقيقة وكأنها ساعة، ومن يعيش لحظة أنس فإنه يشعر بسرعة انقضاء الوقت وتمر الساعة كالدقيقة.

يقول بن زيدون واصفا طول الليل حين يفارق من يحب:

إن يطل بعدك ليلي فلكم   بت اشكو قصر الليل معك

ففي الوقت الذي يشعر أناس بأن عقارب الساعة تتسابق للحركة هناك من ييحس بأن الليل لن تشرق له شمس من شدة طوله وبطء حركته.

ومن يعيش فرصة وهو لا ينتبه أنها فرصة لا يحس بأن الزمن يسرع في تفويت فرصته.

ومعلوم أن سوء إدراك الفرصة يجعل المهلة تبدو بعيدة فالكفار يرون الموت بعيدا والآخرة بعيدة ومستحيلة الوقوع ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[1]، والمؤمنون يرون الدنيا كلها لا تكفي لاغتنام الفرصة قبل يوم الدين.

---

(١) سورة المعارج، أية ٦-٧.

فهناك مجموعة عوامل تحدد مدى إحساسنا بقرب أو بعد حدوث أي أمر، منها:

أن هناك في زوايا الحياة أناس منكسرون تخلت عنهم الأسباب، وتنكرت لهم الوجوه، وتجاهلت أصواتهم الآذان. توقفت حركة الأسباب بالنسبة لهم، تضاءلت الفرص وضاقت السبل، وصعبت الخيارات فأمامهم خيارات صعبة وبدائل قاسية.

هؤلاء الحزانى قد توقفت عقارب الساعة بالنسبة لهم يرونها متجمدة ويحسون أن أرقام التقويم تعود للخلف. وياليتها تعود فعلا للخلف قبل حدوث البلايا والأزمات يوم كانوا أطفالا وأطفالا فقط.

لك أن تتخيل زمرة قليلة مستضعفة أمنوا بالله وصدقوا رسله تركوا الدنيا لأهلهاوأفسحوا لهم المجال واتجهوا للآخرة وتنافسوا فيها.

فلحق بهم أهل الدنيا ليعيدوهم إلى دنياهم ليس ليشاركوهم نعيمها بل ليجعلوهم خدما فيها وعبيدا للعبيد.

يلوذ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالصلاة عند الكعبة فيمنعهم الكفار!! أفكلما اتجه هؤلاء المستضعفون إلى باب سارع الطغاة إلى إغلاقه؟!!!

ولما وجدوا ملاذا آمنا وهاجروا إلى الحبشة لحقوا بهم ليعيدهم إلى قبضتهم.



يجادلون بالحق فيردون عليهم بالباطل.

يحتمون بالقانون فلا يعترف قانون البغي بحق المظلومين، لقد جردهم الظالمون من حقوقهم وسلبوهم حتى أسمائهم الكريمة فسموهم المارقين والصابئة والشرذمة.

ولقد وصف الله حالهم وأبواب الأرض تغلق في وجوههم بابا بابا بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1].

لقد سلكوا كل السبل فخاب ظنهم في كل سبيل كذبتهم توقعاتهم، وخذلتهم ظنونهم فكلما توقعوا نجاح طريقه انتهت بخيبة أمل فظنوا أنهم قد كذبوا. أي اعتقدوا أن جميع الفرص كاذبة وجميع المياه التي ساروا إليها سرابا فاستيئسوا من الأسباب، وتوقف البحث وكاد الذهن أن يعلن توقفه حتى عن التفكير.

بقي لهم باب واحد وجهة واحده ومقصود واحد لكنه ليس من الأسباب بل هو مسبب الأسباب ومقدر الأقدار ومغير الأحوال ومؤجل الآجال. لا سلطة عليه وسلطته على من سواه ولا سبيل إليه إلا به فما عنده لا ينال بالمغالبة و(المعارضة) بل بالانكسار والاستجداء والاستلطاف والذل والتعرض لمراضيه وفعل ما يحب لكن لا مقدم لما لم أخر ولا مؤخر لما قدم حالنا معه أن ندعوه وننتظر حكمه ﴿وَاتَّبِعْ مَا

(١) سورة البقرة، أية ٢١٤.

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾[1]. فبين اليأس من الأسباب وبين حمكه تعالى زمن تطيله المأساة ويمدده الانتظار ثم لا تحتمل النفوس الانتظار، فتمل من جور الحال وتنهك النفوس من طول الصبر، وانتظار الفرج فتقول الألسن بلغة واحدة ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾.

والحقيقة التي لا تتأثر بالظروف ولا يغيرها إحساس المنتظرين؛ أن وعد الله حق. فوعده آت وكلمته ماضيه ونصره واقع لا شك فيه ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾.

قف هنا وتأمل:

حجم النهضة الذهنية، والقفزة النفسية، والبهجة الثائرة، حين ينزل نصر الله على نفوس كادت تجف، وأذهان كادت تتعطل، وقوى خارت حتى كادت تشل.

تخيلها كالأرض الهامدة وقد نزل بها غيث الله فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

توقف وهنا وتخيل الإجابة التي سيرددونها لو سألهم سائل ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾[2]، أو ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾[3]!!!

كيف ستستعيد الأذهان قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾[4] وكيف سيفهمونه؟

---

(١) سورة يونس، أية ١٠٩.

(٢) سورة إبراهيم، آية ١٠.

(٣) سورة الزمر، آية ٣٦.

(٤) سورة غافر، أية ٥١.

كيف سينظرون لأنفسهم ولظنونهم ولأفكارهم التي خالجتهم قبل مجي نصر الله (القريب)! كيف سيشعرون بالخجل من استبطاء النصر (وهو قريب) وخواطر مرت بهم حول الاستسلام للقوى الغاشمة في وجود قوة الله المطلقة، وإذا تذكروا حالهم لما تأسفوا على فوات عطف الناس وعلى تنكرهم لهم وجفوتهم، كيف سيقيّمون حالهم تلك الآن؟! وقد غمرهم نصر الله القريب برحمات أذهبت جفاف القلوب وجعلت رحمة الناس أقل من أن تطلب فكيف يأسى عليها المؤمنون برحمة ربهم.

ولمعرفة حجم وعمق الدرس الذي تتعلمه القلوب من هذه الحالة تخيل ان ثلة أخرى من المستضعفين، تعرضوا للأزمة ذاتها ثم استطال عليهم الزمن فاستبطأوا النصر، ماذا سيقول لهم الذين مروا بالتجربة وفاجأهم نصر الله فقلب كل شيء؟

ماذا سيوضحون لهم! وبأي أسلوب، وكيف سيتفننون، في إقناعهم وتقديم كل المؤكدات بأن نصر الله قريب، كيف سينظرون لمخاوفهم السابقة نتيجة عجزهم وقدرة عدوهم.. كيف.. وكيف؟ وكيف؟

مهما فعلوا لن يستطيعوا أن يمنحوهم الدرس العميق الذي أحدثه لهم نصر الله تعالى حين وقع.

أخي المبتلى... أختي... التي تعاني طول بلائها...

طرق الأبواب سبب وإذا انتهت الأبواب فلأن الله يريد

صناعة صبرك، فحين تكاد تستسلم ستفاجأ بفتح الباب الكبير، الذي سيصنع الله به يقينك وشكرك، وقصة الفرج التي سترويها. وعندها لن تجد من الكلام والأساليب ما يكفي لتعبر به عما تكوّن وترسّخ في داخلك من دروس وقناعات، ويقين، ومعانٍ، وأشجان.

حينما تتجه إلى الله فيجب أن تتجاوز جميع الذين بينك وبينه وتصل له وحدك ليلقاك وحده لأنه الصمد وحده.

تذكر أن الحفلة الكبيرة تحتاج لوقت طويل لكي تكتمل تجهيزاتها، وكلما طال أمد البلاء زاد حجم الجزاء وعظمت قفزة النصر. فليس في وعد الله شئ بعيد.



كلمات الرب

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

بدأت حياة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتكريم والتشريف فقد خلقه الله بيديه وأسجد له الملائكة وعلمه علما يميزه وأسكنه الجنة وخلق له من نفسه زوجا يسكن إليها ويأنس بها.

---

(١) سورة البقرة، أية ٣٠-٣٧.

فلِمَ هذه البداية بالتشريف قبل التكليف؟! ولماذا لم يكن التشريف هو جزاء الالتزام بالتكليف فقط؟!

يكرمه ربه قبل أن يكلفه... ثم يكلفه... ثم يكرمه بعد ذلك لالتزامه بما كلفه.

ما طبيعة الإنسان الذي يصبح تشريفه وتكريمه سببا في استقامته، وتحمله التكاليف التي سوف يكلف بها؟!

ما العملية التي تحدث في الذهن حين يلاحظ العبد ما حظي به من تشريف وتميز وعناية وفضل؟!

إنها عقلية الشكر، التي تلاحظ النعم، وعقلية الهمة العالية التي تلاحظ المقامات والمنازل الرفيعة؛ عقلية الشكر تبرمج النفس على الحياء من الله فكيف تعصيه وهو المنعم وتطيع عدوه ولم ينعم عليها بشي.

وعقلية الشرف والهمة العالية تبرمج النفس على التعلق بالمروءات والمقامات العالية، والترفع عن السفاسف وكل فعل دنيء لا يليق بالشرف.

إن معاني الشرف في ذهن المؤمن ما هي إلا كلمات توردها النفس السليمة وتحدث بها ذاتها، وتعالج بها كل النزعات السيئة ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾[1] بهذه الكلمة قاوم يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ نزغات إبليس الدنيئة.

---

(١) سورة يوسف، أية ٢٣.

لكن حين تنسى النفس أنها خلقت شريفة عالية الهمة فإنها لا تجد مانعا نفسيا من فعل ما يضاد أو ينقص القدر ويقدح في الاحترام.

وحين تنسى النفس حق المنعم المتفضل فإنها تقبل الفعل الذي لا يحبه المنعم الحقيقي ولا يرضاه.

لقد خلق الله أدم كريما شكورا، وحين أنساه الشيطان بعض كلام ربه وأغراه بوعود ظاهرها النعمة والتميز وحقيتها المعصية والخطأ حينها تسبب في خروجه من الجنة.

وحين انتبه عَلَيْهِ السَّلَامُ وأدرك ما فعل جاءت كلمات الرب جَلَّ وَعَلَا لتعيد ترتيب الذهن مرة أخرى وفق الآلاء والنعم التي حظي بها من ربه ففر إليه مرة أخرى لينعم عليه بالغفران، فالفقر إليه تعالى في التوبة كالفقر إليه في الخلق والإيجاد.

فألهمه الله هو وزوجه قولا منه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1]، فتاب الله عليه وهداه للقول الثابت والعمل السديد قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[2].

وفي هداية الله وكلماته غنية وكفاية فالله جَلَّ جَلَالُهُ يعلم ما يكون سببا في رفع المشقة وزوال الغم والهم عن عبادة من

(١) سورة الأعراف، أية ٢٣.

(٢) سورة طه، أية ١٢١-١٢٢.

قول أو فعل أو اعتقاد. فيرشدهم ليعودوا اليه كلما ضللتهم كمات الباطل وأبعدتهم عن ربهم بالإغراء، والتأويل.

إن قولنا (حسبنا الله ونعم الوكيل) تعني أنه تكفينا كلماته تعالى، وتغنينا عن جميع الكلمات وآياته عن كل الآيات. فحسبنا كلامه جل وعلى عن كل ما يزينون.

لا شيء يغرق الإنسان في كرب المعصية مثل تصديقه تلبيس إبليس وتأويلاته ووعوده وكلماته التي تتسبب في غياب الحقائق عن الذهن. (تلك الحقائق التي تمنعه من المعصية) فتنسيه التأويلات (والحيل الذهنية) فضل خالقه فلا يشكر، وتنسيه كذلك شرف الطاعة فيقبل العصيان وتزين له سوء فعله فيراه حسنا ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[1] التزيين ماهو الا (فلسفة خاصة) يمارسها الإنسان على نفسه وهي قناعات خاطئة يلف بها هواه ليحميه من الذوبان تحت ضوء شمس (الضمير) ونور الفطرة. ثم تتلخص تلك القناعات في عبارة موجزة يكررها في كل مرة يخشى فيها استفاقة عقله من خدرة الهوى، كما يكرر المدمن جرعة المخدر.

كم حجبت كلمات إبليس مثل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[2] التي برر بها المشركون ازمتهم مع

---

(١) سورة النمل، أية ٢٤.

(٢) سورة الزخرف، أية ٢٢.

الأوثان وحجبت كلمة ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[1] وعبارة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾[2] التي قالها فرعون لقومة ليصدهم عن تأمل الحق الذي جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبمثل هذه الكلمات التي هي من مدرسة إبليس يتم اقتياد عقول البشر ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[3] فصدق الناس هذه الكلمات واكتفوا بها. وأصبحت حسبهم ولم يكن حسبهم كلام الله فكانت النتيجة ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[4] فكان فرعون في النهاية هو الذي أخرجهم من أرضهم وليس موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾[5].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[6]، ولك أن تتخيل كيف تصنع الكلمات معان وقناعات وعقائد تتراكم عبر الزمن حتى تكون كفرا بواحا.

ولهذا حين سأل النجاشي جعفر بن ابي طالب ما يقول

---

(١) سورة المؤمنون، أية ٢٤.

(٢) سورة الأعراف، أية ١٢٣.

(٣) سورة الزخرف، أية ٥٤.

(٤) سورة هود، أية ٩٨.

(٥) سورة الدخان، أية ٢٥-٢٧.

(٦) سورة التوبة، أية ٣٠.

في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من سداد جوابه أنه استعان بكلام ربه واستغنى به عن كل الكلام فقال: "أقول فيه ماقاله الله في كتابه" أنه عبد الله ورسوله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه.

إن عبارة (حسبي الله ونعم الوكيل) ليست مجرد كلمة بل هي معتقد عميق ومعتصم وركن شديد، وملجأ آمن يحس بها من نطق بهذه العبارة وقد آمن بها وبما تتضمنه من معنى وافتقار إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واستغناء عما سواه ولهذا كانت وصية الله لنبيه ﷺ حين يعرض الكفار ويستغنون بكلامهم عن كلام ربهم وبقوتهم وسلطانهم عن سلطان خالقهم ويعتزون بجمعهم؛ أن يقول عبارة تحول جميع أرقامهم إلى أصفار، فتتضاءل كل صفات الكبرياء والسلطة والملك والهيمنة أمامها تلك الكلمة هي: (حسبنا الله ونعم الوكيل).

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[1].

﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، يكفيني ربي ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، لا معبود سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وبه وثقت، وعلى عونه اتكلت، وإليه وإلى نصره استندت، فإنه ناصري ومعيني على من خالفني وتولى عني منكم ومن غيركم من الناس ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، الذي يملك كلَّ ما دونه، والملوك كلهم مماليكه وعبيده[2].

---

(١) سورة التوبة، أية ١٢٩.

(٢) تفسير القرطبي.

من الذي يعتقد أنه اذا اتبع القواعد والمحكمات التي جاء بها القرآن الكريم سيشقى أو يجد الضيق أو تسوء عاقبته؟؟!! إلا شخص لم يدخل عالم القرآن، أو أنه دخله للتجربة والقرآن لا يمنح اسرارهداه لمن لم يدخله مسلما بما فيه. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[1].

إن من يقرأ القرآن، ويداوم النظر فيه، ويتأمل كلام الله لخلقه في الأزمات والمصائب، ليعلم تماما كيف تغير هذه الكلمات موازين الشعور، وتصحح القناعات، وتغير نفسية المؤمن، وتمنحه شعورا بالسعادة والأمان والطمأنينة.

وانظر كيف يرتب القرآن ذهن المسلم ليفهم الواقع بطريقة مختلفة ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[2].

هذه الكلمات تعين العقل على حسن إدراك الموت في سبيل الله، وتعينه كذلك ليهتدي للقول الصحيح، والفعل، الصحيح

---

(١) سورة فصلت، أية ٤٤.

(٢) سورة البقرة، أية ٥٤-٥٧.

عند المصائب. فيكون بهذه الكلمات في كنف خالقه ورحمة مولاة وفي صحيح مسلم، عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها، إلا آجره الله من مصيبته، وأخلف له خيرا منها»، قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله لي خيرا منه: رسول الله ﷺ.

إن لكل حالة في هذه الحياة قولا يليق بها. وخير ما يقال في كل حالة ما كان من الله أو جاء عن رسول الله فحسبنا وحسب كل مسلم أن يؤمن ببركة كلام الله وعاقبته الحسنة على نفسه وعلى تغيير حالة وطريقة فهمه لواقعه. ففي النعماء قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[1] بينما قال قارون ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[2] فانتقل من العافية إلى العقوبة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[3] وحين الإفك قال المنافقون قولا منكرا عظيما فأورثهم الإثم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[4].

(١) سورة النمل، أية ٤٠.

(٢) سورة القصص، أية ٧٨.

(٣) سورة القصص، أية ٨١.

(٤) سورة النور، أية ١١.

فبيّن الله لهم ما ينبغي اعتقاده في المؤمنين وما ينبغي قوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وكما يتبع المريض وصفة الدواء ويواظب على تناول أدويته صباحا ومساء؛ فللأزمات أدوية من كلام الله جاء بعضها في الأذكار اليومية.

(فلمرض، والحزن، والخوف) أذكار، وكلمات.

وللصباح والمساء أذكار وكلمات، وللكرب كلمات، ولنوم كلمات، وللاستيقاظ كلمات، وللفتن كلمات، وللضعف كلمات، وللدعاء جوامع وكلمات.

وكل من هذه الكلمات لها فيضها في النفس وتأثيرها على الوعي وعلى المشاعر والسلوك.

إن أصعب خيار يواجهه الإنسان في الأزمات هو خيار الفعل بمعنى ماذا يفعل؟!

ولا يمكن له اختيار فعل صحيح مالم يكن ذهنه يتمتع بإدراك صحيح؛ صنعته كلمات من الله صافية، نابضة، فاعلة، مباركة.

---

(١) سورة النور، أية ١٢.

(٢) سورة النور، أية ١٦.

لم يلوثها الشيطان بظلامه ولم تنتجها ثقافة (إنما هي حياتنا الدنيا) ثقافة الاستهلاك والاستعجال.

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[1] دلت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن؛ لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه، لأنه من عند حكيم لا يخفى عليه شيء من الأمور كلها[2].

فكلام الله عاصم عن كل تأويل لشبهة، أو تزيين لشهوة. وحين تطل الفتن بقرونها، أو تثور عواصف الكربات؛ فإن الذهن يواجه سيلا من الكلمات التي تثور في النفس بلا هوادة. لكن من اعتصم بكلمات الله وتأملها، وآمن، بها، وعمل بموجبها، واكتفى بها، فقد كان بالفعل من أهل (حسبنا الله ونعم الوكيل).

وتأمل كيف يرشد الله تعالى رسوله إلى التسبيح والصلاة بكلمات تتدفق منها الولاية والعناية والرحمة واللطف والهداية ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[3].

أي: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك

(١) سورة الأنعام، أية ١١٥.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) سورة الحجر، أية ٩٧-٩٨.



انقباض وضيق صدر، فلا يهيدنك ذلك، ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة؛ ولهذا قال: "وكن من الساجدين"[1].

حسبنا الله..... حسبنا قوله..... حسبنا مواساته وتسليته..... حسبنا وعده..... حسبنا أمره..... حسبنا ذكره..... حسبنا كتابه..... وحسبنا شرعه.

لا يوجد اسم يمكننا أن نردده فيكفل لنا الفرج والنجاة! ولا يوجد عبارة يمكننا أن نحفظها ونرددها فتحصننا من الشر! ولا يوجد كلام نتيقن أنه حق فنؤمن بما فيه من معانٍ ونضمن أنها ستغير حالنا!

الا حين نردد اسم الله ونذكره، ونردد آياته وتلوها، ونعلم أننا بذلك نصعد على أكثر السفن أمانا وأيسرها كلفة واقربها مسافة إلى بر الأمان. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2].

حين نحظى بالطمأنينة بذكر الله ولذكر الله فإن معركتنا مع الخوف والحزن قد حسمت لصالحنا. فمهمتنا الآن هي السعي بكل السبل ألّا نترك مانعا يحول بن قلوبنا وبين كلام

---

(١) تفسير بن كثير.

(٢) سورة الرعد، أية ٢٨.

ربنا، وأن نعطي قلوبنا الفرصة لتكتسب السكينة والإيمان والطمأنينة؛ والتي ستكون بلسم أرواحنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا.

صورة من واقعنا:

لقيت رجلا بلغ به الهم والحزن مبلغا عظيما فتعطلت أغلب مصالحه وسئم الحياة بسبب مرض أصابه منعه من لذة الحياة. ثم لقيته بعد مدة وقد تغير حاله كثيرًا وحسنت نفسه وعاد للحياة من جديد فسألته عن مرضه فذكر أنه لا زال يعاني منه ثم قال: لكنه الأن مجرد مرض أتعايش معه ولم يعد كابوسا يدفنني وأنا حي.

فكيف حصل هذا؟!

لقد كان يردّ (في قلبه) كل أفكار إبليس والنفس بكلام الله، والذكر، فكان يختم البقرة كل يوم.

وهذا هو السر.

لقد تكفلت كلمات الله بنفي خبث كلمات إبليس ووسواس النفس وتثبيطات وتخويفات الجهال من الناس. فتجاوز محنته وتغلب على أحزان قلبه. فاستعاد قواه النفسية، وحياته العملية، وعادت له صورة الحياة الجميلة، مع أن المرض لازال موجودا، لكنه موجود فقط، ولم يعد مهيمنا على كل شيء.

أخي المبتلى:

كما عوضت كلمات الله الإنسان عن الجنة التي خرج منها فعاش بكلمات الله في جنة الدنيا رغم ما فيها من مشقة العيش وكبد الحياة؛ فستعيده الكلمات نفسها إلى جنة حياته التي نغصتها الهموم، وستهديه إلى جنة الخلد بإذن الله[1].

تؤكد دراسات علم النفس عمق تأثير كلمات النفس على الصحة النفسية فبعض من تردت حالتهم النفسية كان السبب في ذلك هي الأحاديث السلبية التي بداخلهم.

ورتل القرآن ترتيلا

قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في بداية أمر الدعوة إلى الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[2].

في بداية عهد النبوة وبداية الدعوة للإسلام وما صاحبها من متاعب ومشاق وابتلاءات وأذى لحق بالنبي ﷺ وصحابته كانت الحاجة ماسة جدا لتقوية النفوس لمواجهة المرحلة.

وحين تتأمل الآيات تجدها ترشد إلى قيام الليل وتلاوة

---

(١) ذكر بن القيم في كتابه (مدارج السالكين) علامات للتفريق بين أحاديث النفس التي تأتي من الشيطان، ووساوس النفس، وبين ما يكون من جهة داعي الخير في النفس، أو من الله.

(٢) سورة المزمل، أية ١-٥.

القرآن والسبب هو للاستعداد لتحمل (القول الثقيل) وهو الوحي وما فيه من تكاليف وما ينشأ عن الالتزام به من عداوة الكفار وظلمهم وطغيانهم على المسلمين المستضعفين.

فماذا في القرآن ليعطيه لهؤلاء المؤمنين الذين يتلونه في ليلهم؟

- القرآن كلام رب العالمين ليس فيه باطل وليس فيه دعوة لغير الخير. موزون العبارة محكم المعاني ينسجم مع النفس فيرتبها ويتفق مع العقل فينظمه، ليس في كلام الله شيء لا داعي له وليس فيه نقص. إذا سمعته الأذن ووعاه القلب طابت حياة القلب واستقام فعل الجوارح، من عاش مع كلام الله سيكتشف أن جميع قواه الداخلية انتظمت، ومشاعره استقرت، وأفعاله اتزنت. وسيجد أن السكينة والطمأنينة قد عمرت قلبه.
- في القرآن كله الحديث فيه عن الله من أوله إلى آخره. موضوعه الرئيس هو الله؛ حقه تعالى، وأسماءه الحسنى، وصفاته العلى، وأفعاله الحكيمة، وأقواله التي تمت صدقا وعدلا.

الله حين يعرّفنا قوته وقدرته، ونستشعر أنها قوة وقدرة مطلقة؛ فلن يبق لأي قوة أخرى وزن، ولن تجد أي قدرة فرصتها لتبهرنا، أو تهددنا، أو تعدنا بالحماية؛ لأن القرآن



قد وضعها في مقارنة خاسرة ولم تعد قوة البشر تملأ العين بعد أن عرفت قلوب المؤمنين أن الله هو القوي العزيز، وأنه القاهر فوق عبادة، وأنه على كل شيء قدير.

الله حين يعرّفنا رحمته ولطفه ورأفته، فلن تحفل نفوسنا بملاذ آخر، ولن ينجح جميع من يدّعون الرحمة أن يقدموا لنا ملاذا يغني عن رحمة الله، وعنايته ولطفه، ورعايته، مهما كانت أحضان الأمهات دافئة آمنة، ومهما كانت كلمات المحبين لطيفة ناعمة، فإن من عاش مع القرآن ورأى فيه كيف هي رحمة الله بالخلق ولطفه بعباده فسوف يفر إلى الله وحده.

الله حين يقص علينا ولايته للمؤمنين وكفايته ونصرته لهم يجعل المستضعفين أكثر الناس أمانا لأنهم يأوون إلى ركن شديد ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾[1].

حين يحدثنا القرآن عن عفو الله ومغفرته وتوبته على عباده فسوف يشعر العاصي أنه لا يوجد قانون في الدنيا يمكنه منحك عفوا بلا تبعات ويمنحك غفرانا يبتلع كل خطاياك مهما عظمت. بل ويفرح بتوبتك وعودتك إليه مثل الذي تجده في جنب الله حين تتوب إليه.

---

(١) سورة محمد، أية ١١.

القرآن كفيل لمن تدبره أن يجعله يعيش في الدنيا بامتياز خاص يتجاوز به كل المتاعب لأنه سيعرفه بالله وحين نعرف الله سنضع كلًا في موضعه مهما حاول المزايدة.

- في القرآن تسلية عبر قصص الرسل وأحداث الأمم. فمن أروع ما يحدثه قصص القرآن في الذين يتلونه أو يستمعون له؛ (الاندماج) حيث ينساق ذهن السامع مع الحدث وتصوير البيان القرآني حتى يتحد الخيال مع واقع القصة فكأن السامع يعيش القصة كما عاشها أصحابها. الاندماج يجعلك تبكي مع يعقوب، وتتأوه مع إبراهيم وتتمنى مع لوط، وتضحك مع سليمان عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أجمعين.

الحديث في القرآن يجعلك تعيش التجربة كمن عاشها وتتعلم منها كمن خرج منها.

ما أروع أن تدخل (الجو) القرآني بأحزانك وتندمج في قصة يوسف بآلامك وغربتك ودموعك وتتعلم منها بعمق أن التقوى سبيل التمكين ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

ثم تخرج منها وكأنك تخلصت من كل حزنك حين تقرأ

---

(١) سورة يوسف، آية ٩٠.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١]، وبعد كل الآلام وبعد كل الآمال تدفعك القصة إلى نتيجة حتمية لمن انساق مع محتواها وهو أن النهاية المعتبرة والنتيجة التي تغني عن كل نتيجة هي ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢]، إنها القصة التي تدعوك لأن تكون أحد أبطال الحلقة الأخيرة الذين يدخلون الجنة بما صبروا.

في القرآن تندمج مع قصة نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يقول: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[٣].

ثم تستفيق على جواب من الرب العظيم ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[٤]. فترى أو كأنك ترى ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[٥] بالأمس نلتمس مطلق القوة، واليوم نشاهد اثار القوة المطلقة.

أسالك بالله هل هناك مقهور لم تمر به لحظة الضعف

(١) سورة يوسف، أية ١٠٠.

(٢) سورة يوسف، أية ١٠١.

(٣) سورة هود، أية ٨٠.

(٤) سورة هود، أية ٨١.

(٥) سورة هود، أية ٨٢.

هذه، ثم هل يشك مؤمن في أنه سيعيش لحظة النصر تلك (التي سيعيش المؤمنون لحظة مثلها) كما عاشوا لحظة الانكسار وسيذوق الظالمون مرارة (موعدهم الصبح) كما ذاقوا متعة (قل تمتعوا في داركم).

هذا في مجموع المؤمنين والمستضعفين، أما الأفراد فمن لم يدرك الصبح منتصرا ليرى خسف الظالمين فسيكون قد سبق إلى لقاء ربه الذي فيه أوذي ولأجله بكى ومن أجل دينه طرد وجلد. سيلقاه بعد طول انتظار ويا لمتعة اللقيا ويا لجمال النهاية. حين يلقى الواثق أصدق من وثق به.



يا ليتني مت قبل هذا

مريم بنت عمران العذراء الطاهرة عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ هي فتاة نذرتها أمها لله منذ ولادتها ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[2].

وتربت في كفالة نبي الله زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونشأت في عبادة الله وأنبتها الله نباتا حسنا ورزقها بغير حساب.

واراد الله أن يختارها لتكون أم المعجزة ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، أية ٣٥.

(٢) سورة آل عمران، أية ٣٦.

(٣) سورة مريم، أية ١٦-٢١.

تأمل معي ما يلي: حجم المفاجأة بل الصدمة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾.

تأمل الجواب الذي ينهي جميع الصدمات ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾.

لا يمكن لجواب مثل ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أن يكون مقنعا بلا جدال إلا لقلب مؤمن يعلم ما معنى مراد الله وأمره وقضاءه. تأكد تماما أنه متى ما أصبحت كلمة (حكم الله) كافية لإقناعك بلا حرج في نفسك فأنت على خير، ومتى ما أصبحت كلمة (سمعنا وأطعنا) صعبة على نفسك فأنت بحاجة لمراجعة قلبك وتسليمك لله.

مع مريم البتول عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ رغم هول الصدمة وصعوبة تقبل (ولادة من غير زوج) لا يحتاج الأمر إلى وسائل إقناع واستنتاج الحكم لإقناعها بخيار الله لها.كان كافيا لها أن تعلم أنه مراد الله شرعا وقدرا. لتسلم له ذلا واختيارا.

لست أدري كم نحتاج حين يبتلينا ربنا لنقبل خيار الله لنا...

كم تحتاج فتاة (من فتيات زماننا) من الكلمات لكي تقبل خيار الله لها بالستر؟ وما خصها الله به في شريعته.

وكم يحتاج (متفلسف) من الحجج والأجوبة الذكية لكي يسلّم لشرع الله ويدع شبهات عقله جانبا.

كم يحتاج (عالم، داعية) ليتقبل نتيجة اختيار الله له فيتحمل نتائج صبره على دعوته، ونشر العلم، وكم تحتاج معلمة القرآن (التي تستطيع أن تقلد موضات أهل زمانها) لتتقبل نتيجة كونها تعلم وتلقن (كلام الله) فلا تنافس أهل الدنيا في لهوهم.

نعود إلى مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ التي صدّقت بكلمات الله، ووقع معها أمر الله، فنفخ الملك فيها من روح الله فحملت من غير زوج.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾(١).

ومع الحمل على مريم البتول عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ الاستعداد للولادة!!

من المعلوم أن كل أنثى شريفة لا تحمل من هم الولادة إلا ألم الطلق ومشقة المخاض ثم ينتهي كل ذلك الهم حين تبشر بوليدها.

أما مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ فإنها نسيت ألم المخاض برمته لأنها تحمل هما آخر، إنه هم خبر الولادة وما يتبع ذلك من ضجة سوف يهتز لها المجتمع كله.

نعم لقد قبلت مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ خيار ربها وصدقت به بإيمانها، ولكن من يقنع الناس بهذه القصة التي حتى مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ نفسها في أول وهلة قالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى

(١) سورة التحريم، آية ١٢.

بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ إن قصة كهذه ليصعب تصديقها حتى من أشد الناس ثقة في مريم العذراء عَلَيْهَا السَّلَامُ ومعرفة بطهرها فكيف برعاع الناس وسفهائهم وتجار الإشاعات ومروجيها، وأعداء الطهر الذين سيحتفلون بادعاء انتحار الفضيلة على أيدي رموزها[١].

لا يجد المؤمنون صعوبة في تقبل أمر الله، لكنهم يجدون صعوبة بالغة في إقناع المكذبين بالحق المبين، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[٢].

لذلك فإنها عَلَيْهَا السَّلَامُ حين حملته ذهبت به إلى اقصى الوادي خوفا من تعيير قومها واتهامهم لها بالزنى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[٣].

وجاءت اللحظة التي ليس لوصفها تعبير، ولا لتبريرها جواب، فتمنت لو أنها ماتت ونسيها الناس وانقطع خبرها، فمن أصعب حالات البلاء تلك الحالة التي يتمنى فيها المبتلى لو أنه مات بدلا من مواجهة واقعه. ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٤].

---

(١) تخيل لو أن هذا الحدث كان في وجود وسائل النشر الرقمي كيف سيكون الجدل في مواقع التواصل، ماذا ستقرأ.

(٢) سورة الشعراء، أية ١٢.

(٣) سورة مريم، أية ٢٢.

(٤) سورة مريم، أية ٢٣.

في عمق الأزمة وفي شدة الضيق وفي لحظة انعدام الخيارات لدرجة تمني الموت؛ يناديها[1] من تحتها: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾[2].

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾[3].

بكل بساطة لا تحزني.... فليس مع الله يبقى الحزن.

كلي واشربي وقري عينا.... فالولادة خبر مفرح فافرحي بمولودك الصغير. وعيشي لحظة النعمة التي من الله بها.

بعيدا عن كل ما حدث كم يستحق شرف الحمل بنفخة ملك وحمل بنبي وولادته من سرور!

ما قاله عيسى الصغير عَلَيْهِ السَّلَامُ معناه: هو أنني سبب سرور، وشرف، وفضيلة وعفاف، وأما مسالة مجادلة الناس وما يقولون فما عليك سوى التزام الصمت فلقد انتهت مهمتك وبدأت مهمتي.

روى الطبري في تفسيره لما قال عيسى لمريم (لا تَحْزَنِي) قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي، لا ذات زوج ولا مملوكة، أي شيء عذري عند الناس يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا

(١) وقيل أنه جبريل كان في مكان أخفض من مكانها فناداها.

(٢) سورة مريم، أية ٢٤.

(٣) سورة مريم، أية ٢٦.

مَنسِيًّا فقال لها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنا أكفيك الكلام ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

اخي المبتلى: كل بلاء يصيبك، وكل كرب يمر بك لأنك قبلت خيار الله لك، أو لأنك تحملت أمر الله، أو لأنك لم تقبل إغراءات الفتن ومساومتها، ورفضتها، فأوذيت في الله، فاعلم أن الله سيتولى الدفاع عنك. وسيكفيك حجتك، وسيرد على من يؤذيك، وسيسخر لك من يكفيك حرج الكلام.

فاسعد باختيار الله لك، واسعد بتوفيقه لك، ولا تدع أحدا يفسد عليك طيب ثباتك. بل تلذذ بفرحة عيدك عيد ثبات المبادئ بعد صوم النفوس عن الفتن وعيد (أضحى) نفرح فيه بالتضحية لأجل الدين.

يا أصحاب المواقف الخالدة والكلمات التي يحفظها التاريخ؛ قد يتمنى الواحد منكم لو مات قبل هذا....!!

لكن ليس في الخلود موت ستبقى سيرتك التي تتمنى موتها خالدة نقية إلى يوم الدين. ماتت سيرة كل من كانت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ تخشى أن يعيروها وأصبحوا نسيا منسيا، وبقيت سيرتها وقصة حملها رمزا خالدا للعفاف والطهر.

أحيانا نعيش الكرب والحقيقة أن منشأ الكرب فقط في ما سنواجهه من كلام الناس. ولو تأملنا حقيقة المشكلة بدون كلام الناس لوجدناها بسيطة.



يقول شاب كنت أعاني من سخرية الناس مني بسبب خطأ فعلته كنت أتخيل نظرتهم لي وأتوقع كيف سيكون حديثهم عني. وبهذه الطريقة حملت نفسي حملا كبيرا، وأثقلت مشاعري، وأتعبت قلبي. فلما قرأت قول الله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

وفهمت أن السمعة محفوظة حين تكون مع الله، عشت حياتي واستمتعت بقدراتي، وبنعم الله علي، ثم سمعت رجلا مرة يقول نحن اليوم في عصر الجديد ألا تلاحظ أن المقطع الذي ينتشر في ليلة ويشاهده الألاف ثم سرعان ما ينسونه ويأتي بعده مئات المقاطع.

والصدمة التي لم أتوقعها أنه بقدر ما هناك ممن ينتقدني كان هناك من يعذرني، بل ومن يؤيد موقفي. لكنني فقط كنت أتخيل الذين سوف يسخرون مني أو يشمتون بي، علما أنهم دائما يسخرون من كل شيء وانتبهت إلى أنهم حين يفشلون فإنهم لن يتخيلوني ويحسبوا حساب رأيي فيهم، ولن يعبّروني وسيعيشون حياتهم الفاشلة دون اكتراث برأيي أو موقفي. ففهمت أنه لاشي يهمني سوى علم الله بي وماذا كُتِبَ لي عنده. هل رضي عني وعفا عني؟ وقَبِلَ عذري؟... فكل سخط بعد رضاه هيّن.

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب[1]

فلا تضخم أخطاءك. فقط راجع حساباتك مع الله، وتب إليه، واسأله المغفرة، وسيقبلك ولن يردك، ولو ردك الناس أجمعون.

صحح الأخطاء، وتعلم من المواقف، واسع في بناء نفسك، واصنع قصة تلهم بها من هم بحاجة إلى قدوة. فقد أصبح لديك الآن ما ترويه.

ربما كان هناك من يرى أن مشكلته لا تصلح ليطرحها على الناس فهو يستحي من كشف أسراره.

أو زوجة لا تريد أن يعرف الناس أن زوجها يخونها، أو أنه بخيل.

أو زوج لا يريد أن يشعر الناس أن زوجته لا تقوم بواجبها نحوه.

أو فتاة لا تجرؤ أن تفصح لأحد عن مشكلتها مع مبتز.

أو شاب لا يدري كيف يطلب المساعدة في دراسته دون أن يعلم أحد بأنه متعثر.

على كل هؤلاء:

تذكر أن مريم العذراء حملت بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم انتبذت به

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني.

مكانا قصيا بعيدا عن البيوت وعن الناس. بينما نساء القرية يضعن أولادهن في البيوت وبين القابلات، وتحت الرعاية، والعناية، فإذا وضعن ارتفعت أصوات (الزغاريد) بالبشرى وقربوا لها الطعام والشراب والدفء والدواء

لكن... مريم في الصحراء عند جذع نخلة يابس...

مريم وحدها تعاني تجربة لم تمر بها فتاة من قبل...

مريم لا تريد أن تبشر أحدا بمولودها...

مريم تقول يا ليتني مت قبل هذا...

لكل هؤلاء أقول:

الله يسمع نجواك...

والله يعلم شكواك...

الله من قبل خلقك وأواك.

وهو اليوم وحده من يكشف بلواك.فتحدث إليه وافعل ما يحبه ليريك ما تحب.

اقبل خيرته تعالى وستقبلك الحياة بأسرها، وستصبح مشكلتك شيئا من الماضي، ثم تمتلك الشجاعة لترويها.



إبراهيم الذي وفى

إبراهيم الخليل نبي مرسل من أولي العزم من الرسل له سمات شخصية عرف بها عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

أواه حليم: أواه يعني: كثير التأوه رحيم رؤوف ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[1].

وحليم يعني: بطئ الغضب لا يستعجل على من أغضبه. ومن حلمه أنه رغم أذية ابيه له إلا أنه وعده أن يستغفر له.

منيب: رجاع للحق، مقبل على ربه ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[2].

كان قانتا لله: مطيعا لربه مستقيما ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3].

كان شاكرا: معترفا بنعمة الله عليه عاملا بما يرضي ربه المنعم شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

---

(١) سورة التوبة، أية ١١٤.

(٢) سورة هود، أية ٧٥.

(٣) سورة، النحل أية ١٢٠.

(٤) سورة، النحل أية ١٢١.

كان حنيفا: مسلما وما كان من المشركين ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

المتأمل في سيرة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يلاحظ أنه حين سمع الملائكة تخبره بهلاك قوم لوط أخذ يجادل في قوم لوط، ثم يبرر القرآن هذه المجادلة بأنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان رحيما مشفقا.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[2].

هذا النبي الكريم ابتلي كغيره من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لكن ما طبيعة الابتلاء الذي تعرض له قلب الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

لقد اختبره الله في مشاعره وعاطفته الرقيقة، تلك السمة الرقية فيه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تعرضت إلى هزات قوية. كيف وهو الحليم الأواه المنيب.

بدأت ببرائته من أبيه فلقد تخطى إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كل عوائق المشاعر، ليس لأنه جاف المشاعر، أو متحجر الفؤاد، أو قليل الوفاء، بل لأن مشاعره القوية نحو أبيه أقل من تغلب محبته لخالقه ومولاه؛ فتبرأ منه، ومن فعله واتجه بقلبه لله.

ومهما كانت قوة البنوة لكنها لا تعدل قوة الأبوة حين يأتي أمر الله الواضح الصريح بأن يضع ابنه إسماعيل الرضيع

(١) سورة آل عمران، أية ٦٧.

(٢) سورة هود، أية ٧٤-٧٥.

وأمه الضعيفة في واد غير ذي زرع. ولك أن تتخيل هذا الشيخ الكبير الذي ما أن فرح بمولود جاء على كبر حتى يبتلى في عاطفته نحو هذا الوليد الصغير ويدعه مع أمه في واد مهجور قاحل جاف بين جبال سود حارقة.

ولك أن تتخيل هاجر المسكينة وهي تراه مغادرا لا يلتفت، وهي تتبعه حتى بلغ كداء فتقول: (يا إبراهيم لمن تتركنا) فلم يلتفت ولم يجب. وأي إجابة يمكن لشيخ رحيم أن يقولها وبأي أسلوب يسوق لها خبر المفاجئة.

حينها سهلت هي عليه الأمر حين قالت: آالله أمرك بهذا؟ قال نعم. قالت إذن لا يضيعنا.

بهذه السهولة تقبلت هاجر المهمة الصعبة دون تردد دون شروط. أتدري أخي القارئ ما معنى هذا؟

- الله هو الذي كلفني. فالله وحده من يكفلني. فكما اختارني للتشريف فأنا أشكره بقبول التكليف.
- معناه أيضا أنني لا أحتاجك الأن يا إبراهيم فلست أنت صاحب العمل، فعقدي مع صاحب العمل (الله) له أوفّي ومنه أستوفي
- لا يمكن لمهمة بدأها الله أن تفشل فإن الله إذا كلف كفل.
- يعني لنا هذا: أن مهمتنا أن نقبل. ثم نبدأالعمل موقنين

بالكفالة، وليس من شأننا أن نسأل الحكيم كيف ستسير حكمته؟ وكيف سينهي مهمتنا.

باختصار لقد وقعت (هاجر) على بياض وكل من يبرم مع الله عقدا فإنه يوقع على بياض فليس لأحد على الله شروط.

أما إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد أكمل الطريق ولكن لستُ أدري بأي شعور، أوبأي حال يمكنه أن يتخطى طبيعته الرقيقة ويفلت من محاصرة الأفكار التي ولّدها ذلك الموقف. لقد تحامل على قلبه، وتوكأ على صبره، حتى اختفى عنهم خلف تلة، فتفجرت رقّته نهرا من المناجاة لمولاه البر الرحيم.

روى بن كثير هذا فقال: فانطلق إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1].

المؤمنون مهما فاضت مشاعرهم وحشرجت نفوسهم فإنهم يعرفون لمن يبثون شكواهم ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2]. ويعلمون أمام من ينكسرون ويعتذرون ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي

---

(١) سورة إبراهيم، أية ٣٧.

(٢) سورة يوسف، أية ٨٦.

وَأَخِى﴾[١] ويعلمون لمن يفتقرون ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[٢].

مهما غالبتنا الدنيا، وأخذت منا من نحب، ومهما فرقتنا المصائب والخطوب وشرّدتنا، ومهما كانت الأرض التي نلجأ إليها موحشة، أو قاسية الظروف، فليست خافية عن نظر الله، ولا تعزب عن علمه، ومهما اضطرنا طلب الرزق أن نفارق أطفالنا أو نترك زوجاتنا يواجهن الظروف وحيدات فالله لن يضيعنا؛ ما دمنا خرجنا في سبيله نسعى للقمة حلال.

كما كانت (مريم البتول عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ) رمزا لمن يخوّنه الناس وهو أمين ويكذبونه وهو صادق ويسيئون به الظن وهو العفيف فإن (هاجر) كانت رمزا للغرباء، ورمزا لكل امرأة تدفع ثمن ارتباطها بزوج له رسالة، أو غاية، أو مهمة سامية.

عادت هاجر وقد تحملت المهمة كاملة لوحدها.

ترك معها إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ (جراب) فيه تمر و(قربة صغيرة) فيها ماء فجعلت تشرب من الماء وترضع صغيرها.

حتى نفد الماء. فانطلقت تركض نحو الصفا لعلها ترى أحدا أو تجد ماء. ثم اتجهت نحو المروة وهي بين بحث عن الماء وملاحظة لولدها.

---

(١) سورة المائدة، أية ٢٥.

(٢) سورة القصص، أية ٢٤.

وبينما هي كذلك سمعت صوتا.. فقالت: (أدرك إن كان عندك غواث)[1]. ثم اتجهت نحو الصوت فوجدت جبريل قد فجر الماء ينبوعا من تحت قدمي وليدها الصغير وسرعان ما أقبلت على الماء تجمعه وتزمّه[2] بالرمل حتى لا يذهب فكان ماء زمزم أفضل ماء على وجه الأرض.

قف هنا وتأمل:

- قبول المهمة بلا إمكانات والنتيجة ماء زمزم (طعام طعم وشفاء سقم) ماء يغني عن الطعام والشراب والدواء.
- تأمل كيف يكفل الله من يستعملهم لتحقيق مراده.
- قبول مكان موحش قفر غير ذي زرع، والنتيجة تتشرف هاجر بتأسيس أعظم مدينة في التاريخ بركة وحياة.

أما إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد كان يزورهم على البراق[3] مرة كل شهر يصبح في مكة ويقيل في الشام.

وتولّت هاجر عَلَيْهَا السَّلَامُ تربية إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بما مكنها الله من اليقين والإيمان.

ولقد كانت تنتظر هذا الغلام مهمة كبيرة وسنّة الله في

(١) يعني اذا كان عندك ما تساعدنا به فعجل به.

(٢) تجعل له حوضا يجتمع فيه.

(٣) دابة تحمل الأنبياء.

المهام العظام أن يسبقها تأهيل دقيق يليق بالمهمة وامتحان عظيم يليق بالمكافأة.

فبعد أن بلغ مع أبيه السعي، وكان بمنزلة يتعلق بها قلب والده به؛ يتعرض قلب الشيخ الكبير (إبراهيم) والغلام اليافع الغض (إسماعيل) لامتحان يهز الجبال فكيف بقلوب تخفق رحمة وحنانا.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

الله... الله:

هاجر تقول: آالله أمرك بهذا؟ فتجيب: إذن لا يضيعنا.

إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: يا أبت افعل ما تؤمر.

نفس جواب الأم فكلاهما نظر إلى الأمر أنه اختيار الله. إنها مدرسة هاجر. تلك المدرسة التي تمنح شهادات اليقين، وتؤهل على منازل التسليم، المدرسة التي يأتي اختبارها من السماء مباشرة، وذلك لأنها تؤهل للوفاء بحق رب السماء وعهده.

لقد تعلمت هاجر في مدرسة الخليل ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ

---

(١) سورة الصافات، آية ١٠٢.

لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1]؛ فأيقنت أنه لا يضيع من تولاه، وتعلم إسماعيل في مدرسة هاجر ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[2] فقال ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

إنني أقف مندهشا كيف يتعامل هذا البيت مع أمر الله؟! وكيف يتلقون خبر التكليف دون صدمة؟! ويقبلونه دون تردد!؟ ويثقون في عاقبته دون شك؟!

إن من أكبر الأخطاء التي نقع فيها حين نفاجأ بالمصائب هو الذهول عند سماع الخبر (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) والذهول عن قول: (إنا لله وإنا إليه راجعون) ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[3].

وقفة مصارحة مع النفس:

لا يمكن لمن قضى حياته بعيدا عن الله أن يكون الله أول ما يخطر على باله حين يصدمه خبر لا يحبه

ولن يتمكن من اعتاد الغفلة عن ذكر الله أن يتذكر قول

---

(١) سورة الأنعام، أية ٧٩.

(٢) سورة إبراهيم، أية ٣٧.

(٣) سورة البقرة، أية ١٥٥-١٥٧.

(إنا لله وإنا إليه راجعون) عند الصدمة الأولى أو حين يفكر في أحزانه.

سيكون الذهول والترنح والشعور بالشلل في التفكير نتيجة طبيعية لمن عظمت الدنيا في عينيه، وغابت الآخرة عن باله.

ليس بين عشية وضحاها يتكوّن في القلب يقين وإيمان يجعل الذهن تلقائيا يفر إلى الله بـ (لا حول ولا قوة إلا بالله) أو تستغني النفس وتكتفي بـ (حسبنا الله ونعم الوكيل)، أو يعتصم اللسان بـ (إنا لله وإنا إليه راجعون). أو القلب يسكن إلى (إن معي ربي سيهدين).

لقد أسلم إبراهيم نفسه لأمر الله، وأسلم إسماعيل رقبته لأبيه عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ لينفذ أمر الله، وبقيت الأم تراقب ملحمة جديدة من العهد والعقد مع الله.

وليتمكن النبي الشيخ من مقاومة عاطفته صرعه على وجهه ليذبحه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون ذلك أهون عليه.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

(١) سورة الصافات، أية ١٠٣-١١١.

بعد هذا البلاء المبين الذي يكشف عن طاعة لله، وانقياد لأمره بلا حدود تنتهي ملحمة الابتلاء لهذا البيت المؤمن ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[1] تنتهي مرحلة من الوفاء وتمام الأداء.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]. واستحق هذا النبي الكريم صفة الوفاء ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[3].

ولما انتهت مرحلة الوفاء هذه جاءت مرحلة الجزاء، بعد مرحلة قاسية من الابتلاء. فالمؤمنون على موعد من الله بقوله (والعاقبة للمتقين).

فكيف شكر الله لهذا النبي الكريم وفاءه وصبره وتسليمه؟

١. جعله للناس إماما فلا يختلف على إمامة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يهودي ولا نصراني ولا مسلم.

٢. اتخذه الله خليلا ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[4].

٣. شرفه الله ببناء البيت العتيق، أعظم مشروع في التاريخ.

٤. جعل في ذريته النبوة ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾[5].

---

(١) سورة هود، أية ٧٣.

(٢) سورة البقرة، أية ١٢٤.

(٣) سورة النجم، أية ٣٧.

(٤) سورة النساء، أية ١٢٥.

(٥) سورة العنكبوت، أية ٢٧.

٥. شرفه بنداء الحج وتهيئة البيت لوفد الله ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾[١].

٦. خلد أثاره في مقام إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فبقيت أثار قدميه محفورة على حجر من الجنة فليس في أحجار الأرض ما يستحق هذا التشريف. ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٢].

٧. أحكم الله سنته في مناسك الحج فلم يُنسخ منها شيء[٣].

أما هاجر فقد خلّد الله سيرتها وربطها بتاريخ البيت وتأسيس مكة (أم القرى) وجعل السعي بين الصفا والمروة نُسُكًا إلى يوم الدين. كأحد أعظم صورة لتكريم المرأة في الإسلام.

وخلد الله سيرة إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بما فداه من ذبح عظيم وأصبحت الأضحية سنة وشعيرة لجميع المسلمين حتى يوم القيامة.

لماذا كل هذا الابتلاء؟

لقد كانت المهمة الشريفة التي تنتظر أهل هذا البيت الكريم تستلزم استحقاقا عظيما وتأهيلا دقيقا يليق بالشرف الذي سنالونه. فلما تخلوا عن كل علاقة، وعن كل مراد، وقبلوا مراد الله وتعلقوا

(١) سورة الحج، أية ٢٧.

(٢) سورة آل عمران، أية ٩٧.

(٣) عن ابن مربع الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ: «قفوا على مشاعركم، فإنّكم على إرثٍ من إرث أبيكم إبراهيم»، رواه أبو داود وغيره وصححه الألباني.

بمحبته، وسلموا له مصيرهم، وقبلوا منه الخيرة، واكتفوا به تعالى عما سواه، وأيقنوا بكمال عنايته، وحسن تدبيره، واستعانوا به على مراده، إذِنَ لهم بالشروع في عمل شريف. هو شعائر الله العظمى وآياته البينات فأقاموا حق البيت قبل بناءه ثم بنوه، حيث بوأهم الله، ثم قاموا بحق الخدمة عنده ثم قهر الله النفوس لتثوب للبيت عاما بعد عام، كما قهر الأفئدة لتهوى اليهم من قبل.

إن ما يتعرض له المدافعون عن دينهم، والذائدون عن حمى التوحيد الخالص، والقائمون بشرع الله، والآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، من هزات وابتلاءات، ومحن تطال أموالهم وأنفسهم وأهليهم؛ ما هي الا قربان الرضا (من الله) وثمن الشرف الذي به ستحقون الإذن بالدلالة على الله، وتحمل مسؤولية تحقيق مراده الشرعي، وتولي أمر الدين بين أهل الدنيا، وشأن الحق، حين اشتغل الناس بشأن الباطل.

هؤلاء باعوا والله اشترى، وهم على العهد باقون، وبالوفاء متمسكون، وبحسن العاقبة مؤمنون، يستعينون بالله على أمر الله، ويفتقرون إليه في بلوغهم هداه.

في رياض القرآن معلمون ومعلمات، يحسنون فلا شاكر من الناس لهم، ويموتون فلا بواكي لهم، ويعثرون فلا مقيل لهم، ويخطئون فلا عاذر لهم، ويحتاجون فلا يفطن لهم، يبيتون وحاجتهم في صدورهم.

يسخر منهم إعلام السفهاء، ويخذلهم يراع البلغاء. هم في الناس نكرة مع الدهماء، لكنهم معروفون عند أهل السماء، في مدرسة الوفاء يجاهدون، وعلى عهد الله يحافظون، وبكتاب ربهم يعتصمون، وفي روضاته يتنعمون، يكلمهم ربهم بسورو آيات، ويسليهم بقصص الرسل والمعجزات.

قبلوا خيرة الله لهم، وتحملوا مسؤولية وثقل ما أوكل إليهم. لسان حالهم (ربح البيع، والله لا نقيل، ولا نستقيل حتى نلقى ربنا).

وصيتي لهم:

الثبات... الثبات، والوفاء... الوفاء، واليقين... اليقين، والتسليم... التسليم، وحينها سيغنيهم الله بشكره عن شكر العباد ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[1].

يا معشر المصلحين عقدكم مع الله له توفون ومنه وحده تستوفون، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

يا معشر المصلحين إن زعمتم انكم تعملون لله وحده، فاستعدوا حين يُحْجَب عنكم كل شكر، فلا يبقى إلى شكره وحده. فلا سبيل ليخصنا الله بشكره حتى نخلف ثناء الناس وراء ظهورنا.

---

(١) سورة التغابن، أية ١٧.

(٢) سورة التوبة، أية ١١١.

فمادام أمامك شكر تنتظره غير شكر الله، فطريقك لا زال طويلا وزادك من الصبر أضحى قليلا.

يا من يصبر على مشقة البر لوالديه، ومشقة الصبر، على جيرانه يا من تجد صعوبة في الصبر على زوج ظلوم: بينكم وبين شكر الله لكم أن تتعبدوا الله بما ابتلاكم وترجون منه وحد عاقبة صبركم على بلواكم.

ومن صعب عليها قبول مهمتها الشريفة بتربية أولادها فلتتذكر: أن هاجر عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ قبلت هذه المهمة في أشد الظروف. لتؤسس للحياة مدرسة تبدأ بالأم، والأم وحدها.



لولا أن ربطنا على قلبها

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

كان بنو إسرائيل يعانون بلاء عظيما وكربا شديد سماه الله بالبلاء العظيم[2] كان آل فرعون يذبحون الأبناء من بني إسرائيل ويبقون البنات للخدمة في بيوتهم، وقصورهم، ومزارعهم. وكانوا يذبحون الأبناء سنة وسنة لا يفعلون، حتى يبقى بنوا إسرائيل للخدمة والسخرة المهينة.

حملت أم موسى في السنة التي كان الجنود يذبحون فيها أي مولود ذكر، وحين وضعته كان هو موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولقد حاولت أن تخفي حملها ولم ينتبه أحد لذلك، لكن لما ولدته أصبح من الصعب إخفاؤه فخافت عليه الذبح.

فأوحى الله إليها أن تضعه في تابوت فتلقيه في النهر.

وكيف تجرؤ أم على ترك طفلها في النهر الجاري؟......

---

(١) سورة القصص، أية ٧.

(٢) سياتي الكلام عن هذا البلاء في موضع آخر.



- لقد تلقت وحيا فيه توجيه واضح ومحدد فكيف اكتسبت القوة لتنفذه؟
- تلقت أمرا يتعلق بخطوات المهمة (أرضعيه، القيه في اليم).
- تلقت أمرا يتعلق بالمشاعر المصاحبة للمهمة (لا تخافي، لا تحزني).
- تلقت تطمينا بالأمان لنهاية المهمة (رادوه إليك، جاعلوه من المرسلين).

ذكر النبوة وأنه سيكون رسولا يجعل أم موسى تتقبل المخاطرة لأنها ستتعامل مع قضية إعجازية تتعلق بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فيتحول تركيز الذهن من المخاوف والوساوس إلى الأمل الذي تبعثه البشرى في النفس.

لقد اكتسبت أم موسى من القوة النفسية ما يكفي لقبول (الفكرة)[1] رغم ما فيها من المخاطرة، وذلك لأن أي إنسان لا يمكنه الاقدام على أي عمل محفوف بالمخاطر الا إذا تكوّن لديه شعور بإمكانية النجاح. وكلما كانت الظروف قاسية كلما قبلت النفس باقتحام الخطر المتوقع، للنجاة من الخطر المؤكد.

ولكن بعد تخطي مرحلة الانطلاق فإن الأزمة سوف تولد

(١) هي ليست فكرة اجتهدت فيها بل وحيا ألهمها الله إياه لكن فكرة وضع طفل في النهر لم تكن فكرة عادية، لو لم يكتنفها اليقين.

ظروفا جديدة وسوف تضخ معانٍ جديدة، وسيبدأ الذهن في دوامة من الأفكار التي لم تكن في الحسبان.

فبمجرد أن فارقت أم موسى طفلها انفجر في نفسها من الوَلَه، والشوق، والقلق، والخوف، ما لم يكن من قبل حين وضعته بيدها في النهر، ولقد ساعد على هذه الحالة الصعبة طبيعة عاطفة الأمومة التي تفوق كل العواطف. فبلغ من فقدها له أن غلب التفكير في موسى على كل الأفكار، وانشغل قلبها به حتى فرِغَ قلبُها من كل شيء إلا من موسى ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

كادت أن تبدي به، لماذا؟!

لأنه حين يفقد القلب السكينة فإنه يضطرب، ويختل الثبات، وحين يفقد القلب الثبات فإن الذهن يفقد التركيز والوعي. فلا يعود الذهن قادرا على تقديم حلول رشيدة وآمنة وحكيمة.

ولأن الفجوة هنا وقعت في القلب، فقد جاء الغوث من الله في موضع الحاجة؛ في القلب. ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾.

حين يضطرب القلب فـ:

- لا يوجد فكرة يمكن أن يهيدها لك ذهنك

---

(١) سورة القصص، آية ١٠.

- في غياب قلب مطمئن ستقفز الأفكار العجْلَى والخطيرة والسطحية إلى ذهنك مباشرة ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى﴾.
- في غياب قلب مطمئن لن تستوعب أي نصيحة، ولن تفهم أي توجيه، ولن تتحمل تنفيذ أي خطة، ولن تعجبك أي مشورة.
- في غياب قلب مطمئن ستتعطل كل قواك النفسية، وسيتبع ذلك خلل فسيلوجي[1] لكيمياء الجسم. والذي يظهر في عدم الرغبة في الطعام والعجز عن النوم والذهول عن كل نشاطات الحياة الطبيعية ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾.
- في غياب قلب مطمئن فسيتضاعف على النفس ثقل المشكلة وسيجد اليأس فرصة سانحة لينمو ويتجذّر.
- في غياب قلب مطمئن سيعيد الإنسان النظر في قناعاته الصحيحة وسيعطي الفرصة للشكوك أن تهيمن على عقله.
- في غياب قلب مطمئن، سيكون الإنسان صيدا سهلا لمن يصطادون في الماء العكر. وسيتفاجأ بأن مروجي الدمار، والفساد يعرضون عليه حلولا قذرة، وقد لا يتمكّن من المقاومة.

(١) يعني في هرمونات الجسم وإفرازات الغدد

- في غياب قلب مطمئن ستكون عطشانا جدا للسكينة والهدى والتثبيت من الله. لكنك إذا لم تعتصم بالله فقد تتجه للهو، والهوى، والمجون لتروي عطش روحك بماءٍ ملوّث لا يزيدها إلا عطشا.
- للتمتع بقلب مطمئن يجب فحص الكلمات التي نقولها لأنفسنا والتي يقولها الآخرون لنا فبعضها يزيد من حدة الحزن أو هيمنة القلق. وفقدان الطمأنينة.

لقد تلقت أم موسى من الإلهام ما كان كافيا لتقّبلَ بوضع طفلها في اليَم. وهوما يمكن أن يعتبره البعض مغامرة.

ولكن الأزمة تطورت حين وصل بها الحال إلى فقدان القدرة على تحمل فراق موسى. فاحتاجت لجرعة غير اعتيادية من الطمأنينة، فربط الله على قلبها.

ربط الله على قلبها فما النتيجة؟:

- تذكرت وعد الله لها ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.
- استعادت التوازن الذهني فلم تعد مستغرقة فقط في التفكير السلبي وبدأت تفكر بإيجابية واستطاعت أن تبتكر طرقا أكثر أمنا فبدلا من ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي﴾ وتجهض كل الخطة. وجدت حلا سهلا وفعالا ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي تتبعي أمره وخَبَره.

وبدأت أخته تنفذ توجيه والدتها وتبحث عن موسى بهدوء ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

مع توفر المعلومات وطمأنينة النفس يصبح من السهل إدارة الأزمة لذا تدخلت أخت موسى في الوقت المناسب.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ﴾[2].

وقَبِل آل فرعون بهذا المقترح لأن الوضع لا يتسع للمساومة فالطفل لم يتقبل الرضاع من أحد ويخشون عليه الهلاك.

فعاد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى حضن أمه ورعايتها، كما وعد الله جَلَّ وَعَلَا.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

ولتعلم أن وعد الله حق!! أولم تكن من قبل تعلم أن وعد الله حق؟

- ما الذي يحدثه في النفس تحقق وعد الله ومعاينة الحقيقة، ورؤية وعد الله تعالى واقعا عيانا؟

---

(١) سورة القصص، آية ١٠-١١.

(٢) سورة القصص، آية ١٢.

(٣) سورة القصص، آية ١٣.

- ما حجم اليقين بالله ووعده حين رأت أم موسى ابنها عاد إلى حضنها محفوفا برعاية ملكية.
- ما مقدار يقينها بالوعد الثاني ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].
- ما موقفها من الحالة التي انتابتها حين ﴿كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ وكيف تقيم نفسها في تلك الحالة.
- ما مقدار ظنها برب العالمين.
- كيف تنظر الآن إلى تدابير آل فرعون وحرصهم على حماية ملكهم، وتدبير رب العالمين الذي سخرهم لتربية وخدمة من سيقوض ملكهم.
- ما مقدار ما يمكن أن تحدثه الهيمنة الفرعونية في نفس أم موسى بعد اليوم.

وكما هناك بعض الأمراض تكون الوقاية منها عن طريق التطعيم بمصل من نفس المرض؛ حيث يكتسب الجسم مناعة ضد المرض من خلال مصل المرض نفسه. فقد تلقت أم موسى حصانة ضد الخوف باقتحام الخوف نفسه.

فحين قال الله تعالى عن ام موسى ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كانت قد تلقت جرعة من الابتلاء

(١) سورة القصص، آية ٧.

وعاشت موقفا من اليقين ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المؤمنين بوعد الله وأنه حق.

وتلقت (مصل البلاء) عاشت الخوف واهتزت أمام ضغط الأزمة لكنها تلقت جرعة (تطعيم) من السكينة فربط الله على قلبها حتى تجاوزت المحنة. واستقر ابنها في حضنها.

إنها الآن تمتلك حصانة ضد الشك. حصانة تمكنها من تلقي وعد الله بالغيب بيقين لا يقل درجة عن يقين المعاينة.

لذا قال الله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لك أن تتخيل بأي تأهيل نفسي وقلبي ومهاري سوف تتلقى أم موسى أي ابتلاء آخر وأي أزمة أخرى.

قف عند قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فمن معانيها أن الناس لا يعلمون بيقين أن وعد الله حق. لذا عليهم أن يعيشوا[1] موقف أم موسى ويتتبعوا فعل الله فيها ولها، ليَخْلُصوا من خلال القصة للنتيجة نفسها ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

للمظلوم..... إن وعد الله حق.

لمن يعانون لأنهم قالوا ربنا الله..... إن وعد الله حق.

لمن ينتظرون خلاصا....... إن وعد الله حق.

للمؤمنين (الذين أمنوا بوعده وانتظروه بيقين) وعده لهم حق.

(١) يعيشوا الموقف من خلال الاندماج في القصة وتكرار التأمل فيها

لكل الناس... الذين أكثرهم لا يعلمون ستأتي لحظة نكتشف فيها أننا عانينا لأننا نسينا نوعا ما... أن وعد الله حق...

لقد تلقت أم موسى تعليمات واضحة مفصلة (أن أرضعيه، فألقيه في اليم، لا تخافي، لا تحزني، إنا رادوه إليك، جاعلوه من المرسلين).

لكنها لم تتلق أي تفصيل لما تفعله بعد غياب موسى عنها. حتى عاد إليها.

لماذا؟....

في كل أزمة هناك مسؤولية فالأزمة لا تلغي أدوارنا بالكامل. ففي كل مرحلة من مراحل الأزمة هناك دور قلبي أو إجرائي[1].

الإجرائي: هو التصرف وفق المتاح من الأسباب والأفكار

القلبي: هو التعلق بالله فلولاه لن ينفعنا أي تدبير.

فإذا اتسعت دائرة الفرص زادت مسؤوليتنا الإجرائية، ووجب علينا السعي بتدابير أوسع. وفي الوقت نفسه يزيد شعورنا بالفقر إلى الله فزيادة الفرص لا تعني أن حاجتنا لله قد تضاءلت.

وحين تقل الفرص وتعجز القوى عن فعل شيء تقل مسؤوليتنا الإجرائية، وتزيد مسؤوليتنا القلبية فتتجه النفس

(١) يعني تنفيذي



لمزيد من التدابير الإيمانية. مثل التضرع واللجوء والإيمان واليقين وحسن الظن بالله وتفويض الأمر إليه وانتظار وعده وتلمس لطفه واستجلاب رحمته والتعرض لمراضيه ومغفرته.

فهنا يتحول جهدنا من توجه العمل للأزمة لنحقق مرادنا، إلى توجيه العمل نحو السعي في مراد الله، وتجاوز منزلة الوحشة والدخول إلى منزلة الأنس به تعالى.

في هذه المنزلة سنجد أنه لا كلام يشفي ككلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا صوت يريح كصوت تلاوة آياته، ولا حديث يريح النفس كالشكوى إليه ومناجاته، ولا مكان نفر إليه كالمحراب، حين يقف العبد في معراج صلاته.

سنجد في هذه الحالة (حالة التدابير القلبية للأزمة) أننا نسينا الأزمة أو قلّ انشغالنا بها. فبدل أن كانت تشبه (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا) أصبحنا بأعمال القلب في حالة: (ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) هنا ننتظر ونترقب فعل الله الذي نؤمن بأنه خير، نرتقب فقط فليس لنا تدخل في فعله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هو مدبر الأمر هو العليم، الحكيم، الخبير، اللطيف.

ومن تدبير ربنا لنا أن يفتح علينا بسبب بسيط لكي تلتقي حركتنا (بتوفيق الله) مع ما خفي علينا من تدبير الله مثل (وقالت لأخته قصية) فكرة بسيطة هدى الله ليها لتلتقي مع

تدبيره الخفي وهو (وحرمنا عليه المراضع) فتولدت فكرة الحل فقالت (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم). فحصل الغيب الذي آمنت به (فرددناه إلى أمه).

ما الذي أنتجته حالة اليقين والسكينة والأنس بالله والثقة به وتفويض الأمر إليه؟

- أنتجت إيمانا قهر الشكوك وبدد الوساوس ووأد التهور.
- أنتجت سببا بسيطا لكنه ملفوف بالبركة.
- أنتجت وصفة لكل عبد خاف أو حزن...... ولكن أكثرهم لا يعلمون.



أنتم اليوم خير

قد يعاني الناس شدة في أرزاقهم حتى يصعب على بعض المجتمعات توفير كسرة الخبز ولو في الأسبوع مرة. ففي الناس من يعاني من طعام واحد لا يستساغ. وكم من إنسان يكدح يومه كله ليطعم أطفاله بعض الحبوب اليابسة أو عروقا من جذور الأشجار أو تمرا لا يكاد يمضغ من قسوته.

أحيانا يصعب تأمين كساء كاف يستر البدن. أو الحصول على لباس يقي برد الشتاء، أو غطاء يظلل من حر الصيف.

ولاشك أن النفس تسعى لتغيير هذا الحال، والمحسنون يسعون للمساعدة في ذلك. ومن حق البؤساء السعي في تغيير حياة البؤس، وتمني الحياة الكريمة.

آه يا لزفرات الثكالى ويا لحسرات الأيامى، يا لدموع الفقراء ولمعاناة المساكين. ينتظر الناس العيد بينما الفقير يخشاه. تبدأ المدارس لتبدأ معاناة البيوت الفقيرة مع أطفالهم وطلبات تعليمهم، يأنس الناس بالأقارب ويتحاشى الفقراء زيارة الأقارب، حتى لا يروا من النعيم الذي لديهم ما لا يقدرون عليه ولا يصبرون عنه.

لكن ونحن في أعماق بؤسنا وفقرنا يمكننا أن نرى كيف عاش الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هذه الحالة وكيف عالجها النبي ﷺ.

عن أبي حرب بن أبي الأسود قال: حدثني طلحة البصري قال: كان الرجل منا إذا قدم المدينة فكان له بها عريف نزل على عريفه، وإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة[1]، فقدمت فنزلت الصفة، فكان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مدّ[2] من تمر بين اثنين، ويكسونا الخنف، فصلى بنا رسول الله ﷺ بعض صلاة النهار، فلما سلم ناداه أهل الصفة يمينا وشمالا: يا رسول الله، أحرق بطوننا التمر، وتخرقت عنا الخنف[3]، فمال رسول الله ﷺ إلى منبره فصعده فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر الشدة ما لقي من قومه حتى قال: «ولقد أتى علي وعلى صاحبي بضع عشرة وما لي وله طعام إلا البرير»، قال: قلت لأبي حرب : وأي شيء البرير؟ قال: طعام رسول الله ﷺ تمر الأراك[4]، فقدمنا على إخواننا هؤلاء من الأنصار وعظم طعامهم التمر فواسونا فيه، والله لو أجد لكم الخبز واللحم لأشبعتكم منه، ولكن عسى أن تدركوا زمانا حتى يغدى على أحدكم بجفنة ويراح عليه بأخرى[5]، قال: فقالوا:

---

(١) أهل الصفة مسلمون قدموا إلى المدينة ولم يكن لهم سكن إلا المسجد. وطعامهم من صدقات التمر الذي تأتي لهم من الناس.

(٢) المدّ هو مقدار يقارب نصف الكيلوغرام.

(٣) تخرقت أي تمزقت من طول اللبس وهي ثياب غليظة من الكتان.

(٤) ثمر الأراك.

(٥) يعني أن الطعام سيكون متوفرا ويأتي صباحا ومساء في الجفان وهي الصواني الكبيرة.

يا رسول الله، أنحن اليوم خير أم ذاك اليوم؟ قال: «بل أنتم اليوم خير، أنتم اليوم متحابون، وأنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض»، أراه قال: «متباغضون»(١).

ما سألوا شيئا كبيرا سألوا طعاما قليلا. ولقد وعدوا بما لا يتخيلونه من طعام الغداة والرواح في وفرة ورفاهية لكن سيفقدون معها نعمة تفوقها وزنا؛ نعمة الحب الصافي والأخوة الصادقة.

ما قيمة الثوب في زمن الخوف، وما قيمة الطعام اللذيذ المتنوع على مائدة البغضاء، وما ذا يعني لنا المال إذا كنا سننفقه لندمر أخوّتنا، ونقطع روابط محبتنا.

في العالم اليوم من يحنّ إلى جوع بطنه بعد أن جاعت نفسه للأمن والمحبة والسلام.

بل أنتم اليوم خير... خير لأنكم متحابون، خير لأنكم إخوة.

ليس كل بؤس نعيشه هو شر لنا وليس كل رفاهية نتمناها هي خير لنا ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

---

(١) أخرجه بن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه.

(٢) سورة البقرة، آية ٢١٦.

إن تقديراتنا للأمور ليست شاملة فمهما كانت المعلومات متوفرة لدينا فسيبقى للأمور خفايا لا ندركها.

الله وحده تعالى من يحيط بكل شيء علما. لا يغب عنه شيء فهو العليم الخبير، وبعلمه وخبرته تعالى يضع لنا مقاييس الحياة ومعيار الخير والشر والنفع والضر.

كم دمعة تبكي لبؤس أصابها. لو علمت ما في الغيب لبكت فرحا. وكم عين ترقب الصبح ولم تعلم أن طول الليل خير من قصره، وأن في الظلمة نور سيغرب مع شروق الشمس لكننا لم تنتبه إليه.

ليست المشكلة في أننا نسعى في رفع الظلم عن أنفسنا، فهذا حق متاح مشروع.

وليست المشكلة في أننا نحاول تخفيف وطأة الفقر وقسوة الحياة، فالله لم يتعبدنا بتعذيب أنفسنا.

ليست المشكلة أبدا في حصول النعمة وسعة الحال وذهاب المعاناة وتجاوز الأزمات.

إنما المشكلة في التعامي عن عطاءات الأزمة، وفيوضاتها، وخيرها الذي جلبته في ثنايا الشدة.

كم فتحت الأزمات على قلوبنا من فيوضات الإيمان والذل لرب العالمين والفقر والتضرع إليه.

هل تعلم أن في كهف الأزمة مأوى للغرباء يفوق قصور المقيمين؟

هل تعلم أن في أمواج الأزمات لطائف تخالط صيحات المستغيثين؟

هل تعلم أن في الوحدة أنس برب الناس يفوق منادمة السمار؟

قف... فقد آنَ موعد التوقف، فأحيانا يتحتم علينا الوقوف.

توقف عن اللوم، توقف السخط، توقف عن التأفف، توقف عن التحديق في وجه الأزمة القبيح.

التفت حولك هناك ما يستحق النظر.

فتش قلبك ففيه ما يغنيك عن تمني حياة أهل البطر.

والله إن بعض لحظات انتظار الفرج الذ على القلب من لذة الاحتفال بتحقق الأمنية حال حصولها.

يا معشر المصابين، والمحزونين، والمضطهدين، والمكلومين، والمغمورين، والمحرومين. لا تسخطوا على ربكم، فربما كنتم اليوم خير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].



(١) سورة النور، أية ١١.

واصطنعتك لنفسي

سبق الحديث عن ولادة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وعناية الله به حتى عاد إلى أمه، وقرت عينها به.

وبعد حياة متوالية المواقف والأحداث يعود موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من ارض مدْيَن مصطحبا معه زوجته متجها إلى أرض مصر. عاد إلى قومه المستضعفين، ولست أدري بأي نية يعود وقد خرج منها خائفا يترقب، وماذا تغير في الأمر بعد عشر سنوات من الغياب؟ لكن مهما تحسنت الظروف فلن يخاطر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بحياته فيتعرض لفرعون، وملأه علانية. وهم يطلبونه بذنب ليقتلوه.



في مشهد الطور

بعد خروج من مصر ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[1].

بعد مسير طويل وحيدا حافي القدمين حتى بلغ ماء مدين وبعد جلسة منهكة تحت الشجرة ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2].

بعد عشر سنين من الخدمة في رعي الغنم ورعايتها في الجبال والقفار.

بعد عودة إلى مصر وإلى مصير شبه مجهول تحوطه المخاوف من فرعون وملأه، في ليلة باردة في صحراء سيناء كل ما يسعى له موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (شهاب قبس) يدفئ به أهله من برد الصحراء.

آنس من جانب الطور نارا.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[3].

---

(١) سورة القصص، أية ٢١.

(٢) سورة القصص، أية ٢٤.

(٣) سورة القصص، أية ٢٩.

وسار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نحو ذلك الضوء الذي يحسبه نارا.

يسير عَلَيْهِ السَّلَامُ متحملا ثقل رحلة وأزمات متوالية قطعها كلها منذ ولادته حتى عودته من مدين صابرا شاكرا.

يسير نحو الضوء بعد رحلة خوف ورحلة جوع ورحلة عناء وغربة من أهل.

يسير وهو لا يدري ما ذا هناك؟

فلما أتاها..... فلما أتاها....

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1].

ماذا يمكن للعقل أن يتصور وللقب أن يشعر وللنفس أن تعيش وللعين أن ترى وللأذن أن تسمع وللجسد أن يتحمل في لحظة يقال فيها (إني أنا الله).

الله.. الله... الله. رب العالمين.

رحلة تنتهي بموقف كهذا كأنها لم تبدأ.

عناء ينتهي بنداء كهذا كأنه لم يكن.

خوف تحمله إلى رب العالمين لا يمكنه البقاء.

يا موسى... كم نادى الجبارون بهذا الاسم ليقتلوه ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ

(١) سورة القصص، أية ٣٠.

﴿ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾[1]، واليوم يناديه رب العالمين ليقول له: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾[2].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[3].

وأنا اخترتك..

لنعد بالذاكرة إلى حالة العذاب والقهر والذل التي ابتلي بها بنو إسرائل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[4].

ولتأمل قوله تعالى يبين نتيجة هذا الابتلاء والتي سيؤول إليها حالهم، ابتلاهم ليصبروا حتى يستحقوا الخلاص.

وجاء لهم بالخلاص ليكونوا ملوكا، وقادة الأرض، ووارثيها بعد من ظلمهم. فالبلاء مبرر بحكمة من الله، والفرج كذلك.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[5].

---

(١) سورة القصص، أية ٢٠.

(٢) سورة القصص، أية ٣١.

(٣) سورة طه، أية ١١-١٣.

(٤) سورة القصص، أية ٤.

(٥) سورة القصص، أية ٥.

ولنعد بالذاكرة أيضا:

ولادة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سنة الذبح، دخوله في التابوت إلى مركز الظلم والخوف؛ بيت فرعون، وقوعه في أزمة حين وكَزَ رجلا من قوم فرعون فقضى عليه، خروجه من مصر خائفا يمشي على قدميه، ورحلة العمل الشاق.أي قصة عناء تلك التي عاشها هذ العبد الصالح.

كل هذا كان تهيئة لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ اختار الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للرسالة بحكمته ومشيئته وعلمه جَلَّ وَعَلَا دون كسب منه لكن اكتمال أهليته البدنية والذهنية والنفسية صنعت صناعة خاصة خلال رحلة تجاوزت أربعين سنة.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ (١).

واصطنعتك لنفسي... ولتصنع على عيني.

كيف سنفسر كل الأحزان، وكيف سنفهم كل الأحداث، وكيف سندرك كل التحولات؟ حين نضيف إليها ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾.

(١) سورة طه، آية ٣٧-٤١.

كيف سنفهم أو نتفهم، كيف سنقبل أو نتقبل، كيف سنصبر أو نتصبر؟ حين نتناول البلاء من زاوية البناء.

البنائية في الابتلاء:

يغفل كثير من الناس لاسيما حين يطول البلاء عن بعض حكم الله في ابتلاء عباده، ومِن أظهر هذه الحكم وأكثرها نفعًا أنّ الله يبتلي عباده ليصنعهم، ويبنيهم، ويرقيهم في مقامات العبودية، ويطوّر قدراتهم الحياتية، ومهاراتهم في تناول الأمور. بل إن الابتلاء يكون عبارة عن رحلة بناء، ودورة تأهيل، تسبق التمكين والاختيار.

ما الذي تبنيه الأزمات في الإنسان؟

أولًا: زيادة الإيمان فحين تتوالى على المؤمن المحن، ويساور الشك القلوب، ويتفنن الشيطان والمنافقون في زعزعة ثقة الناس بوعد الله، ويعاني المؤمن من مقاومة خلجات النفس، ووساوس الشيطان، ويصارع حربا ضروسا بين جنبيه؛ يأتي الفرج، وينزل النصر، فيتأكد للمؤمن صحة خيارالإيمان الذي اختاره، ويتعمق في قبله اليقين، فيكتسب تأهيلا قلبيا؛ أن وعد الله حق فلا يتعرض لأي منازعة قلبية في ابتلاء يأتي لاحقا. وهذا هو الفرق الذي جعل المؤمنين يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل حين سمعوا أن الكفار يحيكون لهم مؤامرة ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

(١) سورة آل عمران، آية ١٧٣.

وكذلك الحال يوم الحديبية، فما تعرض له المؤمنون من كرب عظيم في ردهم عن البيت، ونحر الهدي خارج الحرم، وعودتهم للمدينة؛ كان شديدا على النفوس. لكن هذا الموقف أظهر عمق إيمانهم بما سبق لهم من عمل ونية وازدادوا إيمانا وعملا، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1].

ثانيًا: تعميق الدروس وتثبيت الأفئدة. ولقد نزل القرآن الكريم مفرقا ولم ينزل دفعة واحدة. والحكمة من ذلك تعميق التعلم وتثبيت المعاني في النفوس ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾[2].

ومعناه (لنصحح به عزيمة قلبك ويقين نفسك، ونشجعك به)[3]؛ فما يحصل للقلب من التثبيت والتقوية، مقصد مهم من مقاصد توزيع النزول على حسب الأحداث. مما يدل أن لكل حدث مقصد بنائي وقيمة عملية يأتي الوحي بتوكيدها، أو مساعدة الناس في استجلائها واستخراجها والتعلم منها.

ففي جميع الشدائد التي تعرض لها المؤمنون عبر التاريخ دروس تبني العقول وتنضج النفوس وتؤكد المعاني تصحح المفاهيم.

---

(١) سورة الفتح، أية ٤.

(٢) سورة الفرقان، أية ٣٢.

(٣) تفسير الطبري.



ثالثًا: التدرب على إدارة النفس والذهن في المواقف المشابهة. ففي غزوة أحد أشيع موت النبي ﷺ ومع كونها إشاعة إلا أن بعض المسلمين تلقاها وكأنها حقيقة. وعاشها كما لو كانت حدثت بالفعل. وهذه الحالة تجعل المسلم يختبر نفسه في موقف افتراضي كما لو وقع بالفعل. فيختبر ذهنه كيف يفكر في ذروة الصدمة، ويختبر قلبه كيف يستجيب للموقف، وكيف سيدرك الموقف ويفسره.

وهنا تتحدد ردود الأفعال. فمنهم من صَعُب عليه أن يستمر في القتال بعد موته ﷺ فوضع السلاح، ومنهم من كذّب الخبر أصلا، ومنهم من صدق الخبر لكنه استفاد منه ليستمر في القتال، كما فعل أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: "فما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ".

وبعد هذه التجربة التي اهتزت واضطربت لها النفوس، وتباينت ردود الأفعال، يأتي الوحي ليجلي الدرس ويلخص التعلم ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[1].

ويبقى هذا الدرس تدريبا عمليا ليحدد التوجه والسلوك

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٤٤.

حين يقع بالفعل الحدث الحقيقي. فحين مات رسول الله ﷺ وكاد الناس يضطربون، فإذا بأبي بكر يذكّر الناس بالتجربة التي عاشوها، والدرس الذي فقهوه، فيقول: "من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية نفسها". فعصم الأمة من الاختلاف والفرقة والفتنة.

فمهما كانت العقبات متتالية والأزمات متوالية، ومهما كانت ضراوة البلاء وصعوبة المعالجة؛ إلا أنها تبني في النفوس ما يؤهلها لمهام أكثر خطورة، وأصعب ممارسة.

إن الأزمات أشبه ما تكون بالمصل الذي يشتق من المرض مادة ليطعّم بها الناس ضد المرض نفسة فيكتسبوا المناعة.

رابعًا: الأزمات تبني في النفوس عقلية التزكية وطلب الغفران والعفو.

ففي غزوة أحد عانى المسلمون حالة أليمة من الكرب، وأصيبوا بمصاب عظيم، لكن أهم ما بناه ذلك المصاب في النفوس هو الحاجة إلى التوبة والاستغفار، والشعور بأنهم بحاجة إلى مزيد من التزكية.

قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا

وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

لقد تعمقت دروس الغزوة في النفوس لأن النفوس عاشتها، وذاقت ألمها، ودفعت ثمن معالجتها. ومن بين تلك الدروس؛ أن المعصية شؤم على المسلمين، وأن تزكية النفوس وتطهيرها والعناية بصلاح القلوب والسعي لتحقيق مراد الله منها؛ من أظهر العبادات وأقواها في بناء الإنسان. ولا ضير إن كان الله يبتلينا ليطهرنا فنلقاه أطهارًا أنقياء.

يجب ألا ننسَ أن عِلْم الله بقلوبنا خير من علمنا نحن بها. وهو أعلم بالخوافي. وستظهر لنا الأزمات ما خفي من أمراض نفوسنا، وشروخها، وسنقف أمام قلوبنا (وضمائرنا) على المحك؛ لنحدد المسار الصحيح، ثم لنعترف ونتواضع للحق فنرتقي.

---

(١) سورة آل عمران، أية ١٤٦-١٤٨.

(٢) سورة آل عمران، أية ١٥٢.

لا يوجد مؤمن يبتلى ببلاء إلا وظهر له في ثنايا البلاء رسالة خفية تقول له: فيك شيء يحتاج إلى تصحيح! ولكن المشكلة حين نتجاهل تلك الرسائل! فنفقد أهم عنصر بناء في الأزمة، وهو تزكية النفس وتصحيح القلوب.

لقد كفر قوم يونس وأنكروا دعوته ونبوته، فلما فقدوا نبيهم، وبدأوا يرون علامات العذاب، وأيقنوا بالهلاك، تفطنوا إلى ما ينبغي عليهم من تصحيح المسار. فأحدثوا أشهر توبة جماعية في التاريخ، وسارعوا لرد المظالم وأخذوا على يد السفيه، ومنعوا كل صور العصيان لله، وخرجوا يستغيثون، وأظهروا خشيتهم لله، ورجاءهم عفوه، وافتقروا إليه، وتخلوا عن قواهم وحيلهم إلى حول الله وقوته. فرفع الله عنهم العذاب. قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾(١).

ومهما كنا عند أنفسنا صالحين، ومهما ظننا أننا محسنون، ومهما توقعنا أننا لم نقترف سببا لما ابتلينا به، فلن نكون أفضل ولا خير من نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ. ولا يمكن لأحد أن يدعي أنه خير من يونس بن متى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومع هذه الخيرية له عَلَيْهِ السَّلَامُ ومع منزلته الكريمة كنبي وعبد صالح إلا

(١) سورة يونس، أية ٩٨.

أنه فقه أن مخرجه من بطن الحوت لن يكون إلا بقوله: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، معناها: إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء[2].

أعظم من المصيبة مصيبة الاّ يُهدى الإنسان إلى تزكية نفسه، ولا ينتبه إلى التوبة، فيخسر أهم عطاءات المصائب وفيوضاتها وهي تطهير النفس وترقيتها.

الذين قالوا: (حسبنا الله ونعم الوكيل) هم الذين لاذوا به جَلَّ وَعَلَا، واستهدوه ليهديهم في ظلمات الكرب، ليعرفوا ماذا يفعلون له تعالى، وماذا يقولون، وبم يذكرونه، وما مراده تعالى منهم، ليحققوه في أنفسهم قبل مرادهم هم من الله.

لقد عصى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه، فظهر له حجم الذنب الذي اقترفه، وبسببه أهبطه ربه إلى الأرض. ولاشك أن الانتقال من حياة الرغد إلى حياة الكدح والكبد انتقال شاق على النفس،

---

(١) سورة الأنبياء، أية ٨٧-٨٨.

(٢) تفسير بن كثير

وكرب يحتاج إلى معالجة من النفس والبدن. لكن ما الذي بناه هذا الحدث في نفس آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؟؟

حين تلقى أدم من ربه كلمات فتاب عليه قال:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

فالأن مع معاناة الحياة ومتاعبها بعد النزول من الجنة، هناك نفس تائبة، هناك قلب معترف، هناك عبد يعلم أن الفرار من الله لا يكون إلا إليه، وبهذه العقلية (عقلية التوبة، والتزكية، والاعتراف، والتصحيح) سيبدأ أدم مسيرته على الأرض فبعد هذا البناء النفسي يصبح آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ جاهزا لاتباع الهدى والإرشاد الذي سيأتيه لتولي مهمة خلافة الأرض.

خامسًا: الأزمات تؤهل للاختيار والتشريف.

من تلمّس مراد الله في الازمات والكروب، وهدي إلى توبة وتزكية، وفتح عليه خلال الأزمة في ذكر وافتقار، فإن الأزمة بالنسبة له ماهي إلى مدرسة تأهيل تسبق التشريف.

عاش الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حياة من الحرمان، والغربة، والهجرة، والجوع، والقلة، فما خرجوا من ذلك كله قطاعًا

(١) سورة الأعراف، أية ٢٣.

للطرق، ولا لصوصا، ولا حاقدين على المجتمع، بل خرجوا هداه ورحمة، ورجالا مكتملي العقول، متزني السلوك، لا تغريهم الدنيا التي فتحوها، ولا تخيفهم القوى التي واجهوها، لقد صنعتهم الأزمات في ظل الوحي صناعة الأشراف، والملوك والقادة، ليكونوا مُثُلا عليا. فكانوا أئمة وكانوا هم الوارثين حقا.

وفي المقابل: حين فرط بنو إسرائيل في مقاصد البناء في الأزمات ولم يلتفتوا لمراد الله منهم حين يبتليهم، فحولوا الحياة إلى صفقة حسية دنيوية، ليس لتزكية النفوس فيها مجال.

فانتهى بهم الأمر أنّهم تركوا التكليف ففقدوا التشريف. وخسروا النتيجة الموعودة التي قال الله عنها: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1]. فانتهى بهم الأمر إلى اللعنة قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾[2].

يُجمِع خبراء الاقتصاد والمال أن الخسارات تمنح التجار قوة ومهارة لا تمنحها الأرباح، ويُجمِع الرياضيون أن الإخفاق طريق الإتقان.

وكذلك النفسيون والتربويون يؤكدون أن التعلّم الناتج من المواقف الصعبة يفوق أي تعلم ينتج من مجرد الاطلاع.

(١) سورة القصص، أية ٥.

(٢) سورة المائدة، أية ١٣.

- فتأمل دائما ما الذي تكشفه لك الأزمات من فجوات، وثغرات، وأخطاء وسيئات.
- ركز ذهنك كثيرًا كيف تمكِّن البلاء من تعليمك ما تحتاجه.
- اسأل الله حين الأزمة وكرر السؤال أن يهديك سواء السبيل حتى لا تعالج أزمتك بغير هدى من الله قال الله تعالى مبينا ما سأله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه حين خرج من مصر خائفا يترقب ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1]، فهداه الله إلى طريق مدْيَن وكانت له خيرًا وأمانًا، وفي طريق عودته نال شرف الرسالة.

سادسًا: مما تبنيه الأزمات في الإنسان تعويده على طاعات يفتح الله بها على العبد. منها التوبة كما ذكرنا سابقا، والدعاء، والاستغفار، وتلاوة القرآن، والصدقات، والخشوع في الصلوات، وسُبُل الخير.

ومن علامات عناية الله بالعبد في أيام الكرب وحين وقوع الأزمات؛ أن الله يفتح عليه بالطاعات، ويردّه إليه فيكون فراره إلى ربه ومولاه، ويجعل أنسه في قربه، وذكره، والبحث عن سبل رضاه.

---

(١) سورة القصص، آية ٢٢.

ومن علامات تخلي الله عن العبد في أزمته أن يشغله عنه بالأزمة نفسها، وينسيه ذكره، ويزهده في القيام بين يديه بالصلاة والدعاء، فيتفرق عقله، ويتشتت ذهنه، فلا يهتدي لطريق، وكلّما جرّب حلًا ازداد حيرةً، وازدادت الأزمة اتساعا وتشعبًا.

لكن حين يفر إلى الله فإنه يتجه إلى أن يستجلب عناية الله به، وكفايته له، وتوليه أمره، فتبنيه الأزمة بناءً خاصًا وتصنعه على عين خالقه، ويجمع الله له أمره، وتأتيه الدنيا وهي راغمة.

سابعًا: الابتلاء طريق الولاء:

حيث تظهر الأزمات تولّي العبد لربه وانتمائه للسُنّة، فإن الله يبتلي عباده ليميزهم عن أتباع إبليس ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[1]، معناه "حتى يُعلم حزبي وأوليائي"[2]؛ فمهما كانت مصائبنا مؤلمة ومهما كانت أزماتنا ثقيلة، ففي ثناياها إرشادات لتمنعنا من الانضمام لحزب إبليس، والذي عادة ما يعلن في كل أزمة عن أعضاء جدد. ولو تذكرنا أن الملائكة حين قالت: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[3]، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

---

(١) سورة محمد، أية ٣١.

(٢) تفسير الطبري

(٣) سورة البقرة، أية ٣٠.

تَعۡلَمُونَ﴾[1]، أي أنه سيكون هناك خير وصلاح على الأرض، وأن الناس سيكونون فريقين، فريق صَدَق عليه علمُ الله ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾[2]، وفريق صدَّق عليهم إبليس ظنه حين قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾[3]، ففريق عباد الله المخلصين سيصدُق بهم علم الله، حين يُظهِر البلاء ويَكشِف للملائكة[4] وفاء الرسل والصديقين والشهداء والصالحين وثباتهم على دينهم وإيمانهم بربهم وصبرِهم حتى في أشد حالات الابتلاء، وثقتهم في وعد الله وتكذيبهم وعد إبليس. ويُظهِر انتصار عِلم الله على ظن إبليس فيمَن تولاه.

وهذا من أشد المحفزات التي تعين المبتلى أن يعتصم بالله ويسأله الهدى ويريه من نفسه خيراً حين يبتليه ربُه الذي يُحب أن يرى من عبده أنه من حزبه وليس من حزب إبليس.



(١) سورة البقرة، أية ٣٠.

(٢) سورة الحجر، أية ٤٢.

(٣) سورة الأعراف، أية ١٧.

(٤) فالله يباهي ملائكته بالصالحين من عباده كما في يوم عرفة.

البلاء أسرع طرق البناء

البناء عادة يكون طويل المدة متعدد المراحل، لكن حين يحتاج العبد إلى مدة قصيرة لبناء نفسه، أو يحتاج المجتمع لتصحيح عاجل، فإن البلاء يأتي بحكمة من الله ليختصر المدة ويعمق الأثر.

- كم من أناس قضوا زمنًا طويلًا يعانون من عاداتٍ سيئة ويجدون صعوبة في التخلص منها.
- وكم إنسان تشتمل سريرته على أخطاء يؤجل التوبة منها أو التخلص منها.
- وكم من عاداتٍ تكوّنت في المجتمع وانتشرت وتجذّرت وأصبح اجتثاثها يحتاج لوقت طويل.

فيأتي البلاء فيوقظ المجتمع، ويدفعهم لمراجعة قناعاتهم، وعاداتهم، وتأتي الكروب والأزمات فتهزّ الإنسان هزًّا صريحًا لا مجاملة فيه، فيرى الإنسان حقيقة نفسه، فيستمع لصوت (ضميره) الذي طالما تجاهله. وينضج في نفسه من الوعي بحاله في وقت قصير ما لم يكن يحدث في مدة طويلة.

- إن من يمنع المجتمعات من مراجعة حساباتها مع الله

حين تقع الأزمات؛ ما هو إلا جزء من الأزمة وليس جزءا من الحل.

- من يفوّت على المجتمعات فرصة، التعلم من الأزمة؛ فإنه يرشحها لأزمة أكبر.
- من يُضِلّ الفرد عن الاستماع لصوت (ضميره) الذي أيقظته الأزمة؛ فإنه يجعله يخرج من أزمته ضعيفا، ويحرمه فرصة النجاة من أزمة أكبر.
- من ينصح بمواجهة الأزمات بغير مصارحة النفس، ومواجهتها بإخطائها؛ فهو مثل من يضمّد جرحا ملوثا دون تعقيم[١].

فمهما كانت الصراحة قاسية، ومواجهة النفس صعبة؛ إلا أن النتيجة التي سنحصل عليها تستحق العناء، ونحن أمام خيارين:

إما دفع ثمن الحل، أو دفع ثمن الفشل! وفي كلا الخيارين هناك ثمن لكن الفرق في النتيجة.



(١) هذا ما تؤكده المدرسة المعرفية في علم النفس، والإرشاد الواقعي الحديث.

رحلة الخلاص

سكن بنوا إسرائيل مصر في زمن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم تغيّرت عليهم الأحوال حين تغيّر ملوك الفراعنة، فجاء من يسومهم سوء العذاب، ويستعبدهم خلال مدة استمرت قرابة القرن من الزمان، وهذه المدة الطويلة من الاستعباد، والسخرة، وهيمنة المجتمع الفرعوني، واستعلائه، وممارسة الإرهاب الفكري، والقهر النفسي.

ومع عدم وجود مُلْهِم يحصّن النفوس من اليأس، ويساعد على الحفاظ على الثقة، ويرفع المعنويات؛ كانت حالة بني إسرائيل كالتالي:

- ممارسات طويلة لا تتجاوز الخدمة والتزلّف والتقرب والخضوع. حتى أصبحت ثقافةً مجتمعية. مما شكل هويّة خدميّة قتلت أي طموح نحو السلوك المستقلّ والعقل المتحرر.
- تأثير فكري ومعنوي مهيمن. وفي الوقت نفسه؛ لا يوجد من يحيي النفوس ويساعدها على الحصانة من تصديق الإرهاب الفكري الذي قهر النفوس واقنعها أنه لا أمل في الخلاص.
- عذاب شديد يشغل الذهن عن الانطلاق في التفكير، ويحصره

فقط في تأمل مجريات الأزمة، فهم فقط يراقبون ويترقبون ما يفعله بهم فرعون وجنوده، ويتناقلون أخباره.

بهذه الحالة كانوا في بلاء عظيم ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[١].

وهذا البلاء العظيم كان عظيما فعلا من حيث قسوته وضراوته[٢] ومن حيث عاقبته.

ولكن المرحلة التي تنتظر بني إسرائيل هي مرحلة تمكين ووراثة الملك واستلام القيادة. قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٣].

وهذه المرحلة تحتاج إلى:

- عقلية مستقلة بما يمكنها من انتاج الأفكار وقيادة الحياة.
- نفوس عالية الهمّة تتعلق بمعالي الأمور وتترفع عن سفاسفها.
- قدرات عملية تقدّر المسؤولية وتحترم التكليف.
- نفوس زكية طاهرة تتعبد الله بالذل له وحده، وتجتهد في شكره على التمكين.

---

(١) سورة البقرة، أية ٤٩.

(٢) لبلاء العظيم يشمل العذاب الذي لحقهم ويشمل أيضا اختبار الله لهم حين ابتلاهم بالخلاص أي اختبرهم بالنعمة ليرى شكرهم.

(٣) سورة القصص، أية ٥.

فكيف ساهمت الأزمات في تأهيل بني إسرائيل للخروج من مصر ليتمكنوا من بدء خطواتهم الأولى في تولي مقاليد التشريف؟!

أولًا: بمجيئ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حظي بنوا إسرائيل بالملهم الذي يساعدهم على صحة الإدراك، والتفكير الصحيح فيحدث لهم يقظة ذهنية نحو فهم الأمور وقراءة الأحداث.

ثانيًا: كانت كلمات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تشير إلى ترقية النفوس ومنعها من الانخراط في مجريات البلاء مثل قولهم: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، إلى التعلق بالوعد الحق، والتزود بالإيمان، والأمل بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾.

ثالثًا: بدأت حرية الهمم، وانطلاق التهيئة النفسية، والذهنية لتولي المبادرة، والاستعداد[1] الكفائي[2] لمرحلة الاستخلاف وتحمل مسؤولية التشريف، وأعباء، التكليف بعد الاستخلاف، ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3].

---

(١) الاستعداد يعني امتلاك ما يكفي للانطلاق

(٢) الكفائي يعني امتلاك القدرات التي تحصل بها الكفاية في الحد الأدنى

(٣) سورة الأعراف، آية ١٢٩.

رابعًا: هداهم الله عبر وصايا موسى وهارون عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ إلى تزكية النفوس وإلى القيام بين يديه تضرعا وصلاة. ليتحقق أهم مقاصد البناء وهو تزكية النفس وتعبيدها لخالقها، والكفاية بشرعه[1]، ووعده جَلَّوَعَلَا.

بعد أن قتل فرعون السحرة، تضاعف على بني إسرائيل العذاب، فكانت هذه أزمة متجددة، لكنها رغم شدتها تضمنت في ثناياها توجيهات بنائية للنفوس قال الله تعالى:

- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾[2] حين اشتد الأمر على قومهما، من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنتهم عن دينهم.
- ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[3] أي: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتًا، يتمكنون من الاستخفاء فيها.
- ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[4] أي: اجعلوها محلا، تصلون فيها، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس، والبيع العامة.
- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[5] فإنها معونة على جميع الأمور.

---

(١) الكفاية بالشرع يعني أن يكون شرع الله كافيا عن كل تشريع.

(٢) سورة يونس، أية ٨٧.

(٣) سورة يونس، أية ٨٧.

(٤) سورة يونس، أية ٨٧.

(٥) سورة يونس، أية ٨٧.

- ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1] بالنصر والتأييد، وإظهار دينهم، فإن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا، وحين اشتد الكرب، وضاق الأمر، فرجه الله ووسعه فلما رأى موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، القسوة والإعراض من فرعون وملئه، دعا عليهم وأمن هارون عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على دعائه[2].

خامسًا: جاء الإذن بالخروج بعد مضيّ مدة من الزمن، والغرض من هذه المدة لكي يتهيأ بنوا إسرائيل للرحلة التي وإن كانت رحلة ينتظرونها لكنها جديدة عليهم، وسيكتشف العقلاء منهم مدى الحاجة لمزيد من التأهيل والتربية. وهذا مقصود قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ حيث ستُظهِر النفوس حقيقتها ومدى استفادتها من الأزمات.

سادسًا: لقد أُتيح لبني إسرائيل (خلال البلاء) كلّ فرص التعلم والبناء. لكنهم لم يتلقوا مفرزات الأزمة من الزاوية التي تجعلهم أكثر نضجا، أو أعبد الله وأطوع لرسله، بل تناولوها من زاوية الدنيا والحرص على الحياة، واللوم والتسخّط، والتضجر، والتعنّت، والانبهار بمغريات الدنيا، وقياس الربح والخسارة من خلالها.

ولذلك سلب الله منهم التمكين والتشريف الذي فضلهم به على العالمين.

---

(١) سورة يونس، أية ٨٧.

(٢) تفسير السعدي

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

فلما غفل بنوا إسرائيلي عن مقاصد التزكية التي تحدثها الأزمات في القلوب؛ غفلوا تبعا لذلك عن مقاصد الشكر التي تبنيها النعم في النفوس، فحرموا أنفسهم حظّ الخير الذي في التوراة وفي وصايا الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. فخرجوا من الضراء والسراء ملعونين، وسُلِبت من القلوب خاصية اللين التي تجعلها قابلة للتزكية فأصبحت قلوبًا قاسية. قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

لم يكن أكثر بني إسرائيل عبيدا في الضراء فلم يوفقوا ليكونوا عبيدا في السراء.

ونحن أيضا ما لم نكن في الضراء عبيدا لله بالصبر فليس من السهل أن نكون في السراء عبيدا له بالشكر.

(١) سورة الدخان، أية ٣٢.

(٢) سورة المائدة، أية ٢٠.

(٣) سورة المائدة، أية ١٣.

ومن لم تعلمه الأزمة أن يفر إلى الله ويتلقى كلمات ربه، ويعترف له بالحق في التصرف، والحكمة في التدبير، فسيضطر إلى تصديق وعد إبليس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾[1].

أمامنا طريق أن نكون في عناية الله خلال البلاء، ويلزمنا أن نتلقى عنه، ونعيد ترتيب حياتنا وفق هداه، ووفق قاعدة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[2] لنحصل على ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[3].

أو طريق أن ننفرد بالحل، ونستقبل الأزمة وفق قاعدة ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[4] وربما نواجه: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5].

اجعل هذا السؤال أمامك دائما:

ماذا أراد الله أن يبني فينا حين ابتلانا؟.

فتش عن الإجابة بسرعة قبل أن تنقشع الأزمة.



(١) سورة إبراهيم، أية ٢٢.

(٢) سورة الأعراف، أية ٢٣.

(٣) سورة طه، أية ١٢٣.

(٤) سورة الأحقاف، أية ٢٤.

(٥) سورة الأحقاف، أية ٢٤.

انتظار الفرج وألم الفراق

حين يقع بالإنسان بلاء يكرهه، أو يصيبه هم، أو حزن، فإنه يتجه مباشرة للبحث عن طريقة يتخلص بها من ذلك الهم، وكلما طالت مدة الكربة كلما زاد حزنه وهمه وخوفه.

لكن هناك أناس فروا إلى الله.

فروا إليه بالدعاء والتضرع، ليفرج عنهم.

فروا إليه بتوبة واعتراف بحق الله عليهم.

فروا إليه بطاعة استحدثوها وتقربوا إليه بذكر وتلاوة وصدقات، وصيام...

فروا إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في البداية ليكشف بلواهم.

ثم فروا إليه ليغفر لهم.

ثم فروا إليه ليعفو عنهم ويعافيهم.

ثم فروا إليه ليرضا عنهم فلا يسخط.

ثم فروا إليه لأنهم أحبوا قربه، واستأنسوا بمناجاته، وتلذذوا بالوقوف بين يديه، واستمعوا لكلماته وتأملوا آياته.

بعد هذا التدرج والترقي؛ لم تعد الأزمة والكرب في

عيونهم كما كانت من قبل؛ بل أصبحت المشكلة التي يعانون منها جزءًا من اهتماماتهم بدل أن كانت كل اهتمامهم.

لايزالون يعانون لكنهم، يشتاقون للقرآن تلاوة وسماعا، ويعطشون لسماع كلمات ربهم تغيث أرواحهم.

ينتظرون الصلاة بعد الصلاة، وحين يدخلون إلى الصلاة ففي كل حركة فيها لذة خاصة، من المناجاة، والذكر، والخشوع. فهم يخاطبون ربهم مباشرة ويتحدثون إليه بما يحب في المقام الذي يحب.

يصومون بعض الأيام تقربا وبلا عناء ولا مشقة إنه صيام خاص يعرفون معناه، ويجدون لذته حين يفطرون على ما تيسر من تمر وماء. والناس لا ينتبهون إلى أنهم صائمون لأن حياتهم لم تتغير فهم في أعمالهم سائرون كما يسير الناس، لكن بينهم وبين مولاهم قصة خفية لا يريدون أن يقطعها عليهم قاطع.

لم تعد أذكار الصباح والمساء مجرد حرز كل يوم، فهم يؤمنون بما فيها من بركة وتحصين. ولكنهم يزيدون عن الناس أنهم يتلذذون بها لأنها تصلهم بالله وهي تصبيحتهم للكون مع كل صباح وهي تحيتهم له كل مساء.

يتصدقون في البداية لدفع البلاء، لكن سرعان ما تتحول الصدقة إلى وسيلة لطلب رضوان الله تعالى. رضوانه وحسب،

يسترضونه بالقليل وبالكثير ولو بالكلمة الطيبة، لا همّ لهم إلا التقرب والاسترضاء.

أحبوه وهو الذي ابتلاهم، ويسعون لرضاه وكأنه قد عافاهم؛ لأنهم وجدوا في الكربة من الفتوحات، والخيرات، والبركات، والنعيم، ما يفوق ألم المشكلة، وهمّ البلاء، فهم يسعون لشكر هذا النعيم، قبل سعيهم لرفع ما أصابهم من الكرب الأليم.

كانوا لا يرون للحياة طعما قبل أن تحل مشاكلهم وترتفع عنهم الأزمات وتزول الهموم.

واليوم يرون أنّ أهم مشكلة تواجههم هي كيف يحصلون على غفران الله وعفوه، وتوبته عليهم ورضاه، لقد تأملوا معنى المغفرة، والعفو، فعلموا أنها أهمّ من كل خسارات دنياهم. إذ لا خسارة توازي الحرمان من مغفرته جَلَّ وَعَلَا.

فأصبح همهم:

هل غفر الله لنا...

هل عفا الله عنا...

هل رضي الله عنا...

هل قبل الله توبتنا...

هل قبل الله تقربنا إليه...

والعجيب أن هذه الحالة التي هداهم الله لها ووفقهم إلى

معرفتها وفتح لهم بها؛ رغم أنها أنستهم كل مشاكلهم إلا أنهم اكتشفوا أن المشكلات بدأت تخف وطأتها، وبدأت عقدها تنحل شيئا فشيئا، وبدأت ملامح الفجر تبدو، وبدأوا يحسون أنه لم يعد للمشكلة والأزمة تأثير كبير على نفوسهم ولا على حياتهم!

قلّ الحزن بل كاد يختفي..

قلّ الخوف بل كاد ينتهي..

سكنت النفوس..

انشرحت الصدور..

أشرقت الوجوه..

حقا إنه الفرج لقد جاء.... وهم عنه غافلون، جاء الفرج وهم عنه في فيوضات ربهم مشغولون.

جاء الفرج.... لكن بلا حفلة استقبال.. جاء بلا ابتهاج ولا ضجيج. رغم غبطتهم به وحمدهم لله عليه، وسرورهم بنعمة الله.

تتوقعون يا سادة لماذا كل هذا السكون؟

لأنهم يخشون أن قصتهم مع الله بدأت تنتهي. وأن الفرج إذا جاء وزالت كل الأحزان والمخاوف فسيزول الوقود الذي يولد الحركة ويذكي جذوة النفس لكي تعيش كل لحظاتها مع الله، دعاء، ومناجاة، وذكرا، وعبادة ورجاء.

فكما أن للفرج لذة فإن لذة انتظار الفرج قد تفوق لذة الفرج نفسه.

إن أكبر ما يخشاه هؤلاء حين يرون تباشير الفرج؛ هو خوفهم الا يقوموا بحق الله في الشكر.

يخشون أنه لا يفتح لهم في السراء، من منازل الشكر، كما فتح لهم في البلاء من منازل الصبر والعبودية والخير والرضوان.

ولقد قابلت أناسا مرّ بهم من البلاء، والشدة ما لا يتصوره إنسان. وطال بهم البلاء. فلما هداهم الله إلى فتوحات التوبة، والإنابة، واستمعوا لكلام ربهم في كتابه، وناجوا خالقهم في محراب الصلاة؛ نسوا همهم فعلا، ليس معناه أنهم لم يتذكروه، بل هم يعلمون ويتذكرون ما هم فيه من الهم والكرب كل يوم. لكن قلوبهم لم تعد تنشغل بمتابعة تطور البلاء، وتوقع المخاوف، وتذكر الأحزان. بل أصبحت القلوب مشغولة بمراد الله، وما يحب الله أن يراه أو يسمعه منهم، وهم تحت وقع بلواهم.

قابلت بعضهم فسألته بشّر كيف حالك مع المرض؟ فقال: المرض في زوال، وما بقي منه لم يعد شديدا، لكن أنا الأن قلق جدا من اكتمال الشفاء!!

قلت: الا تفرح بنعمة الله عليك بالشفاء؟

قال: بلى وأشعر بأني مدين لله تعالى بدين لا يوفيه العمر

كله، إذ عافاني وفرج عني، ولكنني خلال المرض كنت قريبا من ربي كنت أحس بقربي منه وقربه تعالى مني، والآن حين بدأت العافية تدب في بدني بدأت أنشغل بها وبدأت أفقد تلك الطاقة[1] التي كنت أتلوا بها القرآن وأصوم بها الإثنين والخميس وأعتمر، وأحج، وكنت أصلي بخشوع لا تُوصَف لذته.

كل ما أخشاه هو أن يقع بي قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

مهما وصفت لكم الحال فلن يكون كما شاهدت؛ حين قال أحدهم إن كان حل مشكلتي سيأتي وسأفقد معه كل ما فتح الله به علي مع القرآن فلتبق المشكلة!! التي علمني ربي كيف أصبر عليها، ولا اريد حلا يغرُّني عن حق ربي فلا اشكره عليه.

لكني أبتهل إلى الله أن يعافيني، وأن يستعملني في الشكر كما استعملني في الصبر. فإنه صاحب الفضل والخير والإحسان يريد بنا اليسر ولا يرضى لعباده الكفر، وظنّنا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجمع لنا بين العافية والتوفيق.

لانتظار الفرج لذة كما للعافية لذة، وإذا أصبح همّ المبتلى في بلواه هو رضا مولاه، فإنه حين تأتي العافية يُهدى إلى أعمال الشاكرين،

---

(١) المقصود بالطاقة القوة والدافع والحماس

(٢) سورة يونس، أية ١٢.

وينتهي هم بلواه ويبدأ هم أخرته ومثواه، وهنا يستعيد القلب قوته، وتستعيد الروح نشاطها، حين تنظر إلى الآخرة أنها هم عظيم، وحين تنظر إلى العافية أنها دين كبير.

فلا يزال داعي السلامة من العذاب يدفع للتقوى، وداعي الوفاء بحق المنعم يدفع للبر، وكلما زاد خوف الأخرة زاد في القلب اللجوء وطلب الأمان بالرجاء في الله وحسن ظنه بمولاه.

ما فائدة هذا النوع من النظر للأزمات؟

- يجعلنا نتحمل مسؤولية أسباب المشكلة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[1].
- يجعلنا نعلم أن لله علينا حق يجب أن يؤدى. فتتحفّز النفوس للعمل الصالح.
- ينصرف تركيز الذهن عن المزيد من اليأس والحزن والسلبية في التفكير؛ إلى الإيجابية في التصرف، فينشط في طلب الغفران الرضوان. لأنه بالفعل ما قيمة أي فَرَج أو حلّ إذا لم يغفر الله لنا! أو يرضَ عنا.
- يحصل للمبتلى بناء النفس وتزكيتها.
- عدم استبطاء الفرج، وعدم الإحساس بطول البلاء.

(١) سورة آل عمران، آية ١٦٥.



- زيادة الإيمان والقرب من منزلة الولاية، التي يتولى الله فيها المبتلى فيكفيه همه بلا جهد، ويرزقه بغير حساب.

- حصول السكينة، ورباط القلب، وثبات النفس، مما يمنع انفلات المشاعر واضطراب السلوك ويزيد من ثقة المبتلى بربه وإيمانه به وبما يرجوه عنده من خير.

- قطع طريق الشياطين الذين يصطادون الناس حال الأزمات. فيهدي الله المبتلى إلى سُبُل السلامة من لصوص دينه، أو خُلُقِه أو ماله، الذين يلتفون حوله بمجرد أن يعثر؛ فكل يقدم له حلا وليس في حلولهم الا الدمار.

- رضا العبد عن ربه فلا يسخط على مولاه بل تجده راضيا عن الله ويحمد الله على ما ابتلاه به ويحمده على ماهداه إليه من خير خلال كربته وأزمته.

- تستمر حياة المبتلى بشكل طبيعي فالذين هذا حالهم تجد أنهم مع وجود الكربات والأزمات إلا أن حياتهم الاجتماعية والأسرية، والعملية، أو التجارية، مستمرة دون خلل، لأنهم مستقرون نفسيا وذهنيا.

- بالنسبة لمن هم موضع القدوة كالدعاة، والأئمة، والقادة، إذا هداهم الله لهذا الحال[1] خلال الأزمة فإنهم يبقون في نفس

---

(١) جال الفتح بالعبادة والذكر، وأعمال الخير

مستواهم القيادي والرمزي، ولا يزالون قادرين على بذل الخير، ونفع الناس. بل إن الأزمة لتفتح عليهم من الفتوحات ما يكون نورا وهداية لمن حولهم، ويجري على السنتهم من الإلهام والتسديد ما يكون خيرا للناس؛ يعصمهم من الفتن ويبث فيهم روح الطمأنينة والسكينة والثبات.

- أن من كان لله عبدا في الضراء (بصبر، ورجاء) فإنه يوفق بإذن الله ليكون عبدا في السراء (بشكر، ووفاء).



وأفوض أمري إلى الله

بعض أنواع البلاء لا يظهر منها إلا آثارها الأليمة. فيُحس المبتلى بالألم، ويرى النقص في ماله، والتهديد في نفسه وحاله، أو ربما يخشى أيادي الظلم والمكر الخفية، ولا يدري حين يُمسي علامَ يبيتون، وإذا أصبح بِمَ سيصبحونه.

فهولا يملك من أدوات الاكتشاف والتتبع، ما يملكه خصومه، ولا يملك من السبل، ما يتقي به سوء ما يمكرون.

ولقد واجه نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بعضا من هذا الخفاء وتداخل الأمور فهو لم يسلّم بمقتل يوسف على يد الذئب، وفي الوقت نفسه لا سبيل متاح لمعرفة الحقيقة فما كان منه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أن فوض أمره إلى الله. ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1]، ومعناه: والله أستعين على كفايتي شر ما تصفون من الكذب[2].

فحين يصبح الخوض في مجريات البلاء فيه خلط للأوراق، وفيه محاذير لا يمكن السيطرة عليها، يصبح الخيار

---

(١) سورة يوسف، أية ١٨.

(٢) تفسير القرطبي.

الأسلم هو التوقف، وتفويض الأمر إلى الله. لا تركا للأسباب، لكن لاستحالة ضمان عواقب المضي في بعض الأسباب. فبعض الأسباب التي نتخذها لحل الأزمة قد ينكشف بسببها عورات مستورة، أو تقع بسببها مشقة لا تُحتَمل أو قد تتضمن بعض الأسباب تعديا على أبرياء لا علاقة لهم، أو حصول ضرر أكبر.

فإذا كان المبتلى ممن يخاف الله ويتقيه، ويخشاه فسيجد في قبله غنىً عن هذه الأسباب غير الآمنة، وسيقبل بأدنى الأسباب، وأقلها تأثيرا، وسيفوض أمره فيها وفيما عجز عنه إلى الله، ويكتفي به فهو حسبه ونعم الوكيل. وسوف يدع للحكيم الخبير كشف المستور وفصل المتشابه، وإظهار الحق. فهو المحيط بكل شيء علمًا وقدرةً وحكمةً ولطفًا.

فحين واجه مؤمن آل فرعون قومه بالحقيقة، وأعلن اتباعه لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعاهم للإيمان به واتباع دعوته؛ وأعلن مفارقته لهم؛ خشي أن يمكروا به، فهم يملكون كل سبل السلطة والقوى الرسمية، والشعبية. ففوّض أمره إلى الله، واكتفى به عن كل عاصم، ورضي به كافيا وبسلطانه ملاذا.

قال الله تعالى يحكي قصته: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1].

(١) سورة غافر، آية ٤٤.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلطكم علي،" فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك[1].

فكانت نتيجة هذا التفويض الناضج الصادق ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾[2].

إن تفويض الأمر إلى الله ليس مجرد كلمة تقال حين لا يريد الإنسان أن يتحمل المسؤولية أو يتكاسل عن فعل الأسباب.

بل هي كلمة لها قيمتها النفسية والعملية، فما هي مقومات التفويض الصحيح؟

١. تحمّل مسؤولية الحل، والقيام بالواجب، والسعي في فعل المتاح كلّ المتاح، والوسع كل الوسع (فمؤمن آل فرعون نصح وبين ووعظ وقام بما يسعه جهده).

٢. الأسباب المتاحة ليست كافية بذاتها فالمؤمن يفتقر إلى عون الله في الأسباب التي تمكن منها (توكلا) ويسأله

---

(١) تفسير السعدي

(٢) سورة غافر، أية ٤٥.

والبركة فيها ويفوض فيما عجز عنه، ليعينه الله بكفايته عنها والتخفيف عنه بحصول العافية من دونها.

٣. نحن لا نفوض الأمر إلى الله لأننا وجدناه خيارا أخيرا بل لأنه المستحق أن يُرجَع الأمر إليه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[١]. ولأنه المتصف بصفات الكمال في العلم والقدرة والحكمة والتدبير وجميع صفات الذات والأفعال التي انفرد فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأهلية الكفاية المطلقة.

٤. التفويض لله يعني أن يمتلئ القلب طمأنينة لما يقضيه الله وثقة في حسن تدبير المهيمن جَلَّ وَعَلَا.

إلى كل مبتلى:

لا تخش خفايا بلواك..

ولا تقلق لما ينتظرك في غدك..

فأنت بين مرحلتين:

- مرحلة واقع تحتاج فيه إلى السكينة، وطمأنينة القلب. ويلزمك فيها فعل المتاح، والسعي في رفع البلاء بما يتيسر من الأسباب، وتفتقر إلى الله أن يبارك فيها، ويكون توكلك في هذه المرحلة أن تعتمد على قدرة الله

(١) سورة هود، آية ١٢٣.

ليبارك في قدرتك وتلجأ إلى علمه ليبارك في فهمك وتدبيرك البسيط.

- ومرحلة مستقبل لا تملك فيه علمًا ولا قدرةً، فتفوض فيها أمرك إلى الله.فعلمه ملاذ جهلك، وقدرته ملاذ عجزك، وحكمته ملاذ سوء تدبيرك، ولطفه غوث إنهاكك، ورزقه غوث فقرك، وكفايته غوث ضعفك أمام قوة ما تخشاه، ورحمته غوث حالك كله، وهداه غوث حيرتك وظنون قلبك.

من تكون هذه حاله فلا يهتم لأي عاقبة، أو بأي قضاء يقضيه بشر مهما علت مرتبته، إذا أيقن أن الله هو الذي يقضي ويحكم لا معقب لحكمه ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[1].

كيف يهتم مؤمن ويخشى ظلما، أو كيدا، أو تدبيرا، ممن بيده سبب من أسباب النفوذ، وقد علم أن الله بيده الأمر كله قال تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[2].

حقيقة يجب أن تكون واضحة في قلوب المظلومين، والمستضعفين، وكل من هيمنت عليه قوة لا يملك لها دفعا، أو أحاطت به تدابير لا يجد لها حلا؛ هذه الحقيقة هي أنه لا يوجد أحد يستقل بالتدبير من دون

---

(١) سورة الرعد، أية ٤١.

(٢) سورة الزمر، أية ٦٣.

الله، ولا يوجد أحد ينتهي إليه الحكم بعد الله، ولا يوجد أحد يجير ولا يجار عليه إلا الله، ولا يوجد أحد تصير الأمور إليه غير الله.

لست وحدك إن سلكت سبيل استجلاب معية الله.

لست ضعيفا أن وفقت لطلب قوة الله.

لست قليل الحيلة إن هديت لتفويض الأمر لتدبير الله.

لست في مدى كيد الظالمين إذا كانوا هم في قبضة مكر الله.

على الماكرين أن يعرفوا أنهم بمجرد بدء أول خطوات مكرهم، فقد نسجوا معها أول خطوات المكر بأنفسهم. فلقد مكر تسعة من الرجال بنبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ولكنهم في اللحظة نفسها كانوا يصنعون مصيدة لأنفسهم.

﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

فما كان عاقبة مكرهم الذي صنعوه بأنفسهم لأنفسهم؟ ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

وكان عاقبة مكر الله لعباده ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة النمل، أية ٥٠.

(٢) سورة النمل، أية ٥١-٥٢.

(٣) سورة النمل، أية ٥٣.

لست معنيا بإفشال ما خفي من كيد الظالمين ومكرهم، فيسكفونك هذه المهمة بأنفسهم، وسيجعلون في خطتهم ما يكفي لابتلاعهم جميعا وهم لا يشعرون.

المهم أن تستحق أنت أن يمكر الله لك، وتنال هذه الميزة، والعناية منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بما يراه من تقواك، وحسن ظنك به تعالى، وتوبتك، وفقرك إليه، واعتصامك به، والكفاية بشرعة، والرضى بخيرته، والسعي لطلب رضاه.

وقفات مركزية في تصور الأزمات:

١. من أهم الحقائق التي تساعدنا في فهم واقع الأزمات وما يحدث لنا أن ندرك بوضوح أن المتصرف الذي قدر هذه الأزمة إنما يتصرف وفق حقه المطلق فكما انفرد بالخلق فقد انفرد بالأمر والتصريف والتقدير ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

٢. أنه تعالى مع تصرفه المطلق وأحقيته في تقدير ما يشاء رحيم بعبادة فلا يقدر ما يشق على عباده ويعنّتهم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[2] ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[3]؛ فالله مع التصرف المطلق فرحمته سبقت غضبه

---

(١) سورة الأعراف، أية ٥٤.

(٢) سورة البقرة، أية ١٨٥

(٣) سورة البقرة، أية ٢٠٧.

٣. أنه مع تصرفه المطلق في تقدير ما يشاء فهو تعالى له كمال الحكمة، والخبرة، والعلم، فلا يقضي قضاء إلا كان هو خير القضاء، وأحكمه، وأعدله، وأحسنهن، فاله تعالى أجلّ من أن تحمله قدرته على ظلم الخلق، أو العبث فيما يقدِّره عليهم (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا).

فالتفويض لله يعني أن نتحدث بما يليق بحقه تعالى في التصرف فيما خلق، وبما يليق بكمال علمه وحكمته، ورحمته وعدله تعالى، ولهذا فإن أحسن ما يقال عند المصيبة؛ إنا لله وإنا إليه راجعون. قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[1].

إنا إليه راجعون قدرا.... فالكل لربه عائد شاء أم أبى.

إنا لله وإنا إليه راجعون شرعا..... فلا يسع المؤمن أن يرجع في كل أموره لغير الله، فهو الملاذ، والمفر، والملتجأ، والمستعان. وشرعه مرجع كل تشريع.

إنا إليه راجعون في تقبل ما يقضيه، وفهم ما يقدِّر، وفعل ينبغي حيال أقداره تعالى.

- نرجع الأمر إليه في تقديره والإذن بوقوعه.

(١) سورة البقرة، آية ١٥٥-١٥٦.



- ونرجعه إليه في تدبيره ورفعه، والتفضل بكشفه.
- ونرجعه إليه في هدايتنا إلى قول ما يليق به، وفعل ما يليق بعبد رضي بقضاء مولاه، وعلّق الأمل به ورجاه، وحاسب نفسه لأنه يخشاه.

حين تهدى النفوس إلى إرجاع الأمر إلى الله، فإنها ترتقي في منازل العبودية، فتجد القلوب في الأزمة ما يبنيها، وتجد الصدور ما يشفيها. فلا تحطّم النكبات معنويات المنكوبين، ولا تسحق الكربات قدرات المكروبين، ولا تتخطف مسالك الغواية، والابتزاز نفوس المحزونين، أو تستغلهم.



فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى

بعد أن حظي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتشريف والتميّز والتكريم تلقّى من ربه عهدا ليتذكره. فقال الله تعالى له محذّرا ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[1].

والعدو لا ينصح أعداءه ن ولايريد لهم الخير فكان همّ إبليس الأول أن يخرج آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ من الجنة، وقد شاء الله أن يقع هذا فأهبطهما الله منها إلى الأرض.

أمّا هدف إبليس الثاني هو أن يمنع ذرية آدم من العودة إليها.

إنه من الواضح لنا جميعا كيف كانت عداوة إبليس لأبينا آدم وحسده وحقده عليه حتى أغراه بأكل الشجرة.

لكن هل كان واضحا لنا ونحن في الدنيا أن عدونا ما يزال حيًا وأنه بغروره وكيده، يسعى ليحرمنا دخول الجنة.

ولو كان في هذه الدنيا جنة[2] فهل سيتركنا إبليس ننعم بها؟

نحن في هذا الدنيا أيضا في جنة، ولن يدعنا عدونا

---

(١) سورة طه، أية ١١٧.

(٢) جنة الدنيا هي الأنس بالله وهي العوض عن الجنة التي خرج الإنسان منها، وإبليس لا يريد للإنسان دخول جنة الأنس بالله لعلمه أنها ألذ ما يجده القلب في حياته وهي التي تورثه جنة الخلد ثم، رؤية الله في الجنة.

فيها وسيغرينا بشي نفعله فنخرج من جنة الدنيا كما أغرى أبانا بأكل الشجرة من قبل.

سوف يغرينا بكل ما نهانا الله عنه، ففي الجنة نهى الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الشجرة، وفي الدنيا نهانا أن تعبد غير الله أو نتولى سواه أو نستبدل شرعه تعالى بشرع غيره.

وكما أخرج إبليس أبانا وأمّنا من جنة فيها العيش رغدا بلا تعب ولا كد ولاهم وحزن ولا ضيق ولا شدة ولا خوف ولا قلق؛ فإنه سوف يسعى بكل وسائله أن يخرجنا من نعمة الله وسعة الحياة، وجنة الطاعة، بإغراقنا بالمعاصي والظلم والخطايا، لتحلّ بنا الشدائد فنخرج من سعة العيش إلى ضيقه، ومن هناء الحياة إلى شقاءها وضنكها، قال تعالى يبين النعمة التي تركها قوم فرعون بمعصيتهم لله وكفرهم به ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾[1].

وقال تعالى عن نتيجة الإعراض عن ذكره وأوامره وسالة الله إليه ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[2].

مما سبق يتضح لنا أن الشيطان يسعى بكل وسائله أن يغوي

---

(١) سورة الدخان، أية ٢٥-٢٧.

(٢) سورة طه، أية ١٢٤.

بني آدم أجمعين كما توعد بذلك ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1]، ويحرمهم جنة النعيم.

لكن الملاحظ:

- أنه بعد خروج آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجنة تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، وتلقى منه هدى ليبقى على توبته ويثبت عليها، حتى يعود لجنة الخلد بإذن الله قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].
- ثم وعده برسالة الهدى التي ستكفل له جنة الدنيا وتهديه إلى دخول جنة الخلد. قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[4].

والحقيقة أن النقلة بين الجنة التي كان الإنسان فيها، وبين الأرض التي هبط إليها، كانت نقلة كبيرة، ومختلفة تماما، ولكن مع هذا الفارق فإنه لا خوف ولا حزن ولا ضلال ولا شقاء لمن اتبع هدى الله.

---

(١) سورة ص، آية ٨٢.

(٢) سورة البقرة، آية ٣٧.

(٣) سورة البقرة، آية ٣٨.

(٤) سورة طه، آية ١٢٣.



هدى الله هو ضمانة العودة إلى الجنة التي في القلوب، وهو ضمانة جنة الخلد وطريقها وهو كذلك ضمانة الحياة السعيدة.

وأصحاب الابتلاءات لديهم فرصة كبيرة لدخول هذه الجنان الثلاث إذا بحثوا في ثنايا الأزمة عن هدى الله.

نعترف أن الأزمات مؤلمة لكن الألم الأشد أن تنتهي بنا الأزمة إلى ضلال عن هدى الله، هذا يعني الحرمان من أعظم مواساة، ومن الحصول على أغلى تعويض وهي الجنة.

مما تولده الأزمات، الحيرة، وتعدد للسبل والخيارات، والحاجة تكون ماسة جدا لنيل الهدى.

لن يمنحك عدوك أي فرصة لتهتدي، لأنه لا يريدك أن تسعد، بل يريدك أن تشقى.

عدوك ليس ذلك الإنسان[1] الذي تسبب في أزمتك بل عدوك وعدو أبيك وعود خالقك وعدو الأطهار والقديسين جميعا هو إبليس.

عدوك هو الذي يريدك أن تنهي معاناتك في نار جهنم، عدوك هو الذي يغريك بفعل ما نهاك الله عنه لتكون من الذين أقسم ليغوينهم أجمعين.

---

(١) إذا كان من تسبب في ازمتك هو صديق سوء يعمل لحساب إبليس فهو عدو لك أيضا.

عدوك يحمل (رؤية) وهي ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]، وأنت أمام خيارين إما أن تكون جزءا من رؤية إبليس، أو جزءا من ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[2].

لا تظن الهداية صعبة، ومهما تصورنا أن مطالب الهداية صعبة فإن القليل الذين لن يحتنكهم إبليس هم الذي كذّبوا هذه الشبهة (شبهة أن الهداية طريقها صعب)، ثم تحمّلوا المسؤولية في طريق هداهم، ليكونوا من القليل الذين لا يستطيع إبليس غوايتهم.

والأزمات فرصة ثمينة للشيطان لكي يبدأ في طرح ما لديه، فالنفس الحزينة، والخائفة، والحائرة، هي أقرب النفوس للتعلق بقشّة الشيطان وتصديق وعود إبليس.

ألا تلاحظ أنه عندما تقع الأزمات ينشط رجال الإنقاذ الشرفاء وينشط كذلك لصوص يستغلون الأزمات لاصطياد الناس أو سرقة ما لديهم؟!

فالحزن الشديد والخوف الشديد، مستنقع يحرص الشيطان الا نخرج منه، حتى نعطيه الفرصة ليوقعنا في شباكه التي تملأ المستنقع.

---

(١) سورة الإسراء، أية ٦٢.

(٢) سورة، أية.

إن الأنسان ليفقد جزءا كبيرا من قدرته على التفكير الناضج، والاختيار الرشيد حن ينغمس في الحزن، أو الخوف، أو القلق.

فيعمى وهو (ليس بأعمى) عن هدى الله الذي أول ما يهديك إليه، طريقة التخلص من حزنك، فيرضيك بكلام الله، ويسعى لطمأنتك من خوفك، فيربطك بالله الذي يحكم لا معقب لحكمه، والذي يجير ولا يجار عليه. فإذا خرجت من قلقك إلى الطمأنينة، ومن حزنك إلى الرضا، فسرعان ما تستبصر وتستفيد من قواك وإمكاناتك وتتحرك في أزمتك بوعي، وتفرق بين حبل النجاة وحبر (السنارة). وبين قارب النجاة، وسفينة القراصنة.

بين شباك عدونا إبليس، وبين خيوط النور من ربنا؛ لحظة هدوء (فيها هدى) أو لحظة اندفاع فيها (قلق).

هدوء لتسمع كلام الله، ومن يتكلم بكلام هو من عند الله وتتأمل، أو تستعجل النتيجة، وتتخبّط في مستنقع الشيطان، ولن تستطيع جينها سماع أي صوت، أو ترى أي طريق، طالما صدّقت أن إبليس لك من الناصحين.

في كل خطوة تخطوها، وكل فكرة تعتنقها للخلاص من همك؛ اسأل نفسك هل هذه الخطوة، أو هذه الفكرة، تجعلني عبدا لله؟!

فكلما شعرت أنك أكثر ذلا لله وعبودية لله فاستمر فإن

ربك الذي هداك إليه، سيتولاك. وإذا تولاك كفاك، وهداك، وأرضاك.

مهمتك عند كل أزمة، أن تبحث عن صوت الهدى في داخلك، أو تبحث عنه في كتاب الله، أو كلام رسول الله ﷺ، أو في كلام من يدلونك على الله.

- تذكر أن في الدنيا جنّة، وهي جنّة العبودية. فلا يخرجك الشيطان منها.
- وتذكر أن الأزمات أكثر الأماكن التي يوجد فيها فخاخ ابليس، وشياطين الإنس. ومن يزيدك يأسا، ومن ينسيك ربك، ومن يعلقك بالدنيا وحدها فهو منهم.
- تذكر أن الفرق بين تسلية أهل الحق، وتسلية أهل الباطل؛ أن تسلية أهل الحق تكون بربطك بالله، وتعليمك ذكر الله، وتسلية أهل الباطل تكون بربطك بالملهيات، وتعليمك الغفلة عن ذكر الله. فأهل الباطل يريدونك مبتسما، وضاحكا، ليس لأنهم مهتمون بسعادتك، ولكن حتى لا تكدّر عليهم بهجتهم، أهل الباطل يخففون عليك همّ الأزمة حتى لا تنقل الهمّ إليهم، فهم لا يريدون من ينغص عليهم لهوهم، فمن لم يكن جزءً من تسليتهم فلن يتحملوه.



فاستجبنا له

هذه العبارة تكررت في سورة الأنبياء في حالات يعتبرها العالم اليوم حالات مستحيلة الحل.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

نادى هذا النبي الكريم ربه فقال ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾[2]؛ فكانت النتيجة ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾[3].

لم تكن الإجابة شيئا عاديا بل حدث كوني شمل النظام البيئي بأكمله. هذا الحدث يشبه ما يُسمّى في عالم الإلكترونيات بـ (استعادة ضبط المُصنّع)[4].

هكذا حين يستجيب الله. تذعن كل مكونات الكون لتنفيذ أمره، فالسماء والأرض اليوم تعملان لنجاة سفينة تولّى الله حمايتها ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[5].

---

(١) سورة الأنبياء، أية ٧٦.

(٢) سورة القمر، أية ١٠.

(٣) سورة القمر، أية ١١.

(٤) معناه إعادة ضبط الجهاز إلى الوضعية التي كان عليها قبل الاستخدام.

(٥) سورة القمر، أية ١٤.

لستَ صغيرا، ولستَ فقيرا، ولستَ ضعيفا، ولستَ وحيدا، ولستم قلة مستضعف، ولا طبقة مغمورين، إذا استجاب الله لكم فالكون كله مسخر لأجلكم.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾[1].

نبي الله أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابتلي بمرض عُضال، هذا المرض أكل جسمه كاملا، تمزّق جلده، وعضلات جسمه حتى أصبح يُرى عصبه، وعروقه وعظامه. في صورة مهيبة، ومخيفة؛ لم يتحملها الناس، فأبعدوه عن قريتهم، فبقي في كهف لا يدخل عليه غير زوجته، وأخذ الدود يأكل جسمه وهو حي يرى ذلك بعينيه. فلم يبق إلا قلبه ولسانه، لأنه حين عضت دودة لسانه دعا الله أن يبقي لسانه وقلبه ليذكره به. كان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعلم أن البلاء مهما كان مؤلما فإن ذلك الألم ينغمر في بحر لذة الذكر.

هذا المرض الذي لا يتصوره عقل طبيب لم يكن شيئا في جنب قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ فحين تنزل رحمة الله فليس لأي ضر أن يبقى، وحين يقدر الله الشفاء، فكل ما تتناوله دواء.

---

(١) سورة الأنبياء، أية ٨٣-٨٤.

في البلاء كان صابرا، ذاكرا، راضيا، وفي الدعاء كان واثقا.

في استجابة الله للعبد درس عميق مفاده: الله ولا شيء سواه.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1].

التقم الحوت نبي الله يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾ لا يمكن لأحد أن يتصور أن إنسان في بطن الحوت سيعيش؛ دون أن تذيبه معدة الحوت وتهضمه خلال ساعات. هذا غير الاختناق ودرجة الحرارة الهائلة في بطن الحوت. مع أن هذه البيئة بيئة هلاك، لكن حين تنزل رحمة الله فإنها تصبح بيئة نجاة، وبيئة حياة، ولقد نجا منها سالما، وخرج منها بقلب ازداد حياة وازداد إيمانا.

في تلك الظروف العصيبة ﴿ٱلۡغَمِّ﴾ دعا ربه فنادى في الظلمات ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

النتيجة ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ ﴾ فنجاه الله من الغم، كل الغم؛ غم الضيق، والندم والظلمات والوحدة.

---

(١) سورة الأنبياء، آية ٨٧-٨٨.

وتأمل قول الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إنها سنة الله في عباده المؤمنين:

- ينجيهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ينصرهم ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[1].
- يدافع عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[2].
- يهديهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[3].
- يتولاهم ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[4].
- يشفي صدورهم بآياته ووحيه ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[5].

---

(١) سورة غافر، أية ٥١.

(٢) سورة الحج، أية ٣٨.

(٣) سورة يونس، أية ٩.

(٤) سورة البقرة، أية ٢٥٧.

(٥) سورة فصلت، أية ٤٤.

- يرحمهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[1].

استجاب الله لذي النون التائب المسبح، لأنه الله، والله رؤوف بالعباد.

أما نبي الله زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقد بلغ من الكبر عتيا، ولم يرزق الذرية، فتجاوز عمره وعمر زوجته مرحلة الإنجاب، فلم يعد هو قادرا على الإخصاب ولم تعد هي صالحة للحمل.

لكنه رأى آثار قدرة الله، ورحمته، وكفالته، في مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ. حين وجد عندها من الثمار ما ليس موجودا في البلد، ووجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، فسألها أني هذا وكيف؟ فقالت هو من عند الله ثم قالت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ فانتبه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى أن الذي يرزق الطعام بغير حساب يهب الذرية أيضا بغير حساب. فهو الله، والله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. قال الله تعالى عن مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

هنا نظر زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى فعل الله فزاد رجاؤه فيه،

---

(١) سورة الأحزاب، أية ٤٣.

(٢) سورة آل عمران، أية ٣٧.

وهكذا كل صاحب حاجة يجب عليه أن يتأمل أفعال الخالق، وآثار صفاته في الكون. وحين يفعل ذلك فلن يمتلئ قلبه بغير الله، وسوف يرجو ربه رجاء لم يؤمله في أحدا سواه، وسيخشاه تعالى خشية لا يخشى مثلها أحدا سواه، وسوف يحبه حبا لم يحب به أحدا سواه، وسيعظمه تعظيما لم يعظمه أحدا سواه، وستتضاءل في عينه كل أفعال العباد أمام فعل الله، بل ستتحول صفات العباد إلى أصفارٍ أمام كمال صفات الله وجلاله.

بالنظر لصفات الله، وأفعاله، سوف تسأل الله ماكنت تراه صعبا ومستعصيا ليس لأنك فلان بل لأنه الله.

وهنالك في ذلك الموقف من رؤية فعل الله الذي يُخضع كل نظم الكون لرب الكون؛ دعا زكريا ربه.

فحينما رأى زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ قدرة الله طمع في فضل الله تعالى.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[1].

فما كانت النتيجة؟

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ

---

(١) سورة آل عمران، أية ٣٨.

كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[1].

مهما تكن مشكلتك، أو أمنيتك، أو حلمك، أو كربتك، مستحيلة الحل، تذكر ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾.

وحين تغريك هذه الكلمة ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ فاعلم أن الله حين يقص علينا هذه القصص فإنه يعرفنا بنفسه تعالى:

- يعرفنا قدرته.
- يرينا رحمته.
- يرينا سرعة غوثه لأوليائه.

يرينا كيف يعامل حزبه ومن تولاه، ويترك لنا المقارنة، لنرى كيف يعامل أهل الأرض أتباعهم ومن تولاهم، وأين تقف بهم قدراتهم فيعلنون إفلاسهم، وتتبخر وعودهم.

لن تكون هذه الآيات عامرة بها قلوبنا، ولن تبني فينا ما ينبغي من اليقين والإيمان والذل والعبودية، ولن تكون نافذةً نحو فجر الخلاص، وانبثاق نور الفرج، لن تكون كذلك حتى نفهم مراد الله من ذكرها لنا، وعرضها علينا في كتابة.

فإذا تكونت في نفوسنا معان تجعلنا في الموضع الصحيح من الله؛ فلا يمكن أن تكون مقاصد هذه الآيات أن تصنع منا

---

(١) سورة الأنبياء، أية ٩٠.

جبارين، ولا متكبرين ولا معرضين، ولا مغرورين، إنها باختصار تصنع منا عبيدا. لكن مع ذلنا وعبوديتنا، فإننا نوقن أننا برحمته في كنف من العناية، وفي ولاية رب ودود وهاب رزاق لا يخذل من تولاه، ولا يخلف وعدا قطعه على نفسه، لمن استجار به ودعاه.

- لكل آية في كتاب الله رسالة من عرفها وتلقاها بحقها، نال بركتها.
- لكل اسم من أسماء الله آثار. آثار في نفوسنا وفي أفعالنا، من تصرف وفقها نال الكفاية والولاية، واستغنى عن الخلق أجمعين.
- كل قصة في كتاب الله، ما هي الا درس لنا، من وعاه رزق حسن العبرة، ولم يكن هو العبرة.

وحين نعلم تماما أن جميع أمواج أزماتنا سوف تختفي في بحر ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ فلا نغفل عن أهم صفة ذكرها الله للذين استجاب لهم وخلصهم من هموم وكروب تفوق طاقة أي إنسان.

فكيف كانوا؟ وكيف كانت قلوبهم؟ كيف كانوا في الضراء متضرعين وفي السراء متضرعين.

يتضرعون في الضراء ليكشف البلوى وهم صابرون، ويدعونه في السراء، ليعينهم على حسن الوفاء وهم شاكرون.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[1].

بينا وبين ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾[2] خطوة:

- خطوة من ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].. توبه واعتراف.
- خطوة من ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.. صلاة وصدقة، وتلاوة، وذكر.
- خطوة من ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.. صبر وتضرع.
- خطوة من ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.. خشوع قلب، واستقامة جوارح.

---

(١) سورة الأنبياء، أية ٩٠.

(٢) سورة الأنبياء، أية ٨٨.

(٣) سورة الأنبياء، أية ٨٧.

مفاتيح الفرج

للفرج أسباب ومفاتيح وهذه خلاصة تؤكد ما سبق وتكمله فتعلق أخي القارئ بها أو ببعضها بحسب ما يفتح الله عليك، فسبيل الله سهل يسير فاختر ما تطيق، وثق في ربك فحسب:

١. معرفة الله[١]

معرفة أسمائه وصفاته، من خلال تأمل ما يقوله عن نفسه تعالى في القرآن الكريم، والسعي لتحقيق آثار تلك الأسماء في نفوسنا.

تعال وتأمل معي بعض هذه الأسماء وكيف تؤثر في حياتنا ونفوسنا[٢]؟

- الخالق:

حين نؤمن أنه الخالق وأننا خلق من خلقه فهذا يعني أنه

---

(١) ننصح بقراءة أي شرح لأسماء الله الحسنى، واقترح كتاب: (لأنك الله)، لعلي الفيفي، وكتاب (الآثار السلوكية لمعاني أسماء الله الحسنى)، لرياض أدهمي.
ولضبط المرجعية العلمية يرجع لكتاب العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (القواعد المثلى في أسماء الله الحسنى).

(٢) ليس المقصود شرح الأسماء الحسنى بقدر ما نقصد إيضاح بعض ما يتعلق بالأزمات.

له حق الأمر، وحق الحكم، وحق التصرف فيما خلق. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

معنى قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي أنه تعالى هو من يستحق أن يأمر ويحكم ويتصرف مطلقا.

فإذا عرفت أنه تعالى له حق التصرف فيك فلتعلم أنه لا يمكنك أن ترفض أمره وشرعه، أو قدره الذي يقدره لك، وأنّ كل حكم أو تصرف منه تعالى فهو تصرف في ملكه وهذا عين العدل.

- العليم الخبير:

الله تعالى الذي خلق كل شيء، عليم بكل شيء، ومحيط بهم علما فلا يخفى عليه خافية، وهو عليم بكل العلوم بما يفوق علم أصحابها بها، لأن كل العلوم إنما تكتشف أسرار علم الله في خلقه فهو السابق علما وخبرة.

فالله مع أنه يملك حق التصرف فينا لكونه خلقنا فهو لا يتصرف إلا بعلم وخبرة وحكمة، فكل أقداره التي يقدرها لها حكمة، وناتجة عن علمه المحيط وخبرته الكاملة.

---

(١) سورة الأعراف، آية ٥٤.

وهذا يعني أننا لن نختار لأنفسنا خيرا مما قدره الله لنا، ولو كشف الله لنا الغيب فلن نجد أحسن مما قدره الله علينا. فلنسلم لحكمه، فلو أن أحدنا قبل أن تقع عليه الكربة كشف الله له الغيب، وأطّلع على بعض علمه، ثم قيل له ماذا تختار فإنه لن يختار غير ما كان مقدرا له مسبقا، حتى لوكان اختياره هو وقوع الكربة التي يخشاها. فكيف والذي قدرها أعلم منه وأحكم وأرحم. فلنرض بقضائه فإنه عين الحكمة والخير.

- الرحيم:

الله تعالى مع قدرته التي لا ينقصها الحكمة وكمال العلم، فإنه رحيم لا يكلفنا ما لا نطيق، ورحيم في أقداره فعاقبة من صبر عليها تفوق الألم الذي فيها، فالله يبتلي ليغفر السيئات، ويرفع الدرجات، ويقيل العثرات، ويعلمنا عن نفسه أنه اللطيف ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾[1]، وأنه الرؤوف ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[2].

فلا سبيل للاعتراض على قدر الله. مهما كان هذا القدر مؤلما فإنه قُدّر ممن يملك حق التقدير، ولا يُقدّر شيئا إلا بعلم وحكمة، فليس في فعله عبث، ويقدر برحمة ورأفة فليس

(١) سورة الشورى، أية ١٩.

(٢) سورة آل عمران، أية ٣٠.

في حكمه ما يشق على العباد. بل فيه رحمة بهم وخير لهم إذا تلقوه بالرضى والقبول، وتأملوا مراد ربهم منهم حين ابتلاهم، ففعلوا ما يحب، وعرفوا حقه عليهم فاستغفروه وتابوا إليه وعبدوه، وعرفوا حاجتهم إليه فتضرعوا إليه وسألوه، وعرفوا حبه للصابرين فصبروا على ما يلقونه فيه فاستكانوا له جَلَّ وَعَلَا.

٢. الإيمان بالغيب

وقد سبق الحديث عنه لكن هنا ننبه إلا أن كل ماثبت عن الله من بشرى، أو عد، أو وعيد، أو خبر، فإن التعامل معه لا يكون إلا باليقين. وأن هذا اليقين هو زاد الصبر الذي به يستعذِب المبتلى حالة الانتظار.

٣. إقامة الصلاة

الصلاة معراج الحزانى.

لماذا الصلاة معراج المحزونين؟

تأمل معي حين انتهت رحلة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وعاد من مدين بعد مراحل عديدة مر بها، ولقي فيها فتونا وابتلاءاتٍ كثيرة وبينما هو عائد بعد رحلة مضنية ونفس عاشت الازمات والترقب والغربة يسمع صوتا يناديه في حال مهيبة جليلة

فيقول: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾[1]، ومع أنه تعالى قد أيده بمعجزة مبهرة وشد عضده بأخيه هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فذلك كله تأييد تظهر آثاره خارج النفس فالمعجزة تظهر آثارها على من يشاهدها، وفصاحة هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تظهر آثارها على من يسمعها، فلابد من تأييد بقوة تظهر آثارها في نفس من يحملها فتقويه وتبنيه وتزكيه فأيده الله بالصلاة والذكر قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[3].

الملاحظ هنا أمره تعالى بالصلاة والذكر فالصلاة والذكر كانا بمثابة القوة الداخلية التي تعين الإنسان وتقويه من داخله، فهي ملاذ يعود إليه كلما لفحه هجير النكبات، وهي مستراحه من عناء الحياة، وهي الموقف الوحيد الذي يكون فيه العبد في موقف الخطاب لربه والاستماع له في آن واحد. حيث فيها خطاب من العبد بالفاتحة والدعاء الذي فيها، وفيها تلاوة للقرآن الذي هو كلام الله لعباده[4].

---

(١) سورة طه، أية ١٢.

(٢) سورة طه، أية ١١-١٤.

(٣) سورة طه، أية ٤٢.

(٤) مع مراعاة الفارق في صفة الصلاة بيننا وبين من كان قبلنا.

في موقف الصلاة يستلهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عنايته وكفالته جل وعلى؛ في كل مرة يتكبر فيها الطغيان ويستعرض قوته، ويشكو إليه حاجته كما شكاها في الطور بقوله ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[1]، وبتلاوة أذكار الصلاة يستلهم الأمان كما حضي به حين سمع ربه في الطور يقول ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[2].

لقد كانت الصلاة ميعادا مع الله في وقتها المعلوم.

في عام الحزن يفقد النبي ﷺ عمه أبا طالب الذي كان يحميه من تسلط قريش، وتموت أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي كانت تواسيه وتشد من أزره بكلامها ورعايتها. وحين فقد هذا وذاك حزن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حزنا شديد فسُمي ذلك العام بعام الحزن.

وفي السنة نفسها وفي هذا الظرف الأليم ذاته، وقعت حادثة الإسراء والمعراج. فأسري به ﷺ إلى بيت المقدس، ثم عرج به منها إلى السماء. وفي رحلته العظيمة هذه من التجليات والفتوح والمشاهد ما لا يتسع له الحديث هنا.

لكن الشاهد في قصة المعراج أنه ﷺ عرج به من سماء

---

(١) سورة الشعراء، أية ١٤.

(٢) سورة القصص، أية ١١٨.

إلى سماء حتى بلغ السماء السابعة وبلغ سدرة المنتهى، وبلغ منزلة كلّم فيها ربَه وكلمه ربُه بما يليق بجلاله وعظمته. في مشهد عظيم (الله وحده المحيط به علما) شهد من رحمة ربه ولطفه، وشهد من عظمته وملكوته. ولك أن تتصور ما تكون عليه نفس هذا العبد الذي بلّغه ربه هذا المقام الرفيع والقرب المؤنس. ثم تصور كيف هو عظم امتنانه لمولاه، ومقدار شوقه إليه بعد أن يعود وقد ناجاه.

وكما عاد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من مشهد الطور بالصلاة عاد محمد ﷺ من مشهد المعراج بالصلاة، وكأنها مرة أخرى هي المعراج الذي تعرج فيه الأرواح والقلوب إلى خالقها كلما حان موعد ذلك الوقوف بين يديه. لقد عرج بالنبي ﷺ وحده لكن بالصلاة ستعرج نفوس المصلين جميعا بالمناجاة والخشوع، فكلما تاقت النفوس إلى الوقوف بين يدي ربها اتجهت إلى محاريبها.

- في محراب الصلاة تنقطع القلوب عن الدنيا وتقبل على الله وحده.
- وفي محراب الصلاة تتضرع النفوس، وتبكي العيون، وتخشع القلوب وتتلى الآيات ويذكر الله ويعظم، وتركع الهامات وتسجد الوجوه.
- في محراب الصلاة نادى الله زكريا ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ

﴿قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾[1]، وفي محراب الصلاة وجد زكريا عند مريم عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ رزقا غير معهود ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا﴾[2]، وفي المحراب الذي فيه احتجبت جاءها الملك فتمثل لها بشرا سويا فأصبحت أم المعجزة عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾[3].

في مشهد الصلاة ومحاريبها كانت المعجزات، والكرامات، والفتوحات، والمناجاة، فأي مفتاح للفرج له كل هذه الروعة والهالة العجيبة.

الصلاة وصية الله للرسل.

فعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كلمة الله في أول حديث له بعد ولادته بقليل يقول: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾[4].

وإذا علمنا أن أشد الناس بلاء الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ سنجد أيضا أن الصلاة هي وصية الله لهم وهي وصيتهم لمن بعدهم.

وهي خير وصية تقال لمن يحمل حملا ثقيلا أو يعالج كربا عظيما أو حزنا أليما.

---

(١) سورة آل عمران، أية ٣٩.

(٢) سورة آل عمران، أية ٣٧.

(٣) سورة مريم، أية ١٧.

(٤) سورة مريم، أية ٣١.

الصلاة موضع المناجاة وموعدنا للمثول بين يدي الله في كل مواقيتها التي أُقّتت لها.

- في الفجر نشهد حضور الملائكة ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1].
- في الظهر نغتنم سر الهاجرة «لو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه»[2].
- في العصر نفوز بما ضيعه من قبلنا «إن هذه الصلاة عرضت على من كان قبلكم، فضيعوها، فمن حافظ عليها كان له أجره مرتين، ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهد»[3].
- في المغرب نختم يومنا بوتر النهار «المغرِبُ وِترُ النَّهارِ»[4].
- وفي العشاء والفجر تمييز المؤمنين عن المنافقين، وفيهما كنوز وبركات، ورحمات ومشاهد لو علمها أهل البلاء لما فارقوا المحاريب. «إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا

(١) سورة الإسراء، أية ٧٨.

(٢) متفق عليه

(٣) رواه مسلم، والشاهد نجم يبزغ بعد الغروب

(٤) رواه أحمد عن بن عمر

فيهما لأتوهما ولو حبوا»[1]، ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[2].

- وفي الليل لأهل القرآن مشهد خاص مع ربهم ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[3].

الصلاة مستراح الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وقرة عين نبينا محمد ﷺ قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا نعيم يشبه نعيم أهل الْجنّة إِلَّا هَذَا وَلِهَذَا قَالَ النَّبِي ﷺ: «حبب إِلَيّ من دنياكم النِّسَاء وَالطّيب وَجعلت قُرّة عَيْنِي فِي الصَّلَاة»"[4].

الصلاة مفرّ العاجزين، وملجأ المستضعفين، وصلة المنقطعين ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[6].

ليس الحديث هنا عن الصلاة لذاتها، لكن المقصود هو علاقة الصلاة بالأزمات والكروب، وما تحدثه في النفس من تزكية، وسكينة،

---

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) سورة الإسراء، أية ٧٨.

(٣) سورة المزمل، أية ٦.

(٤) رواه النسائي من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٥) سورة البقرة، أية ٤٥.

(٦) سورة طه، أية ١٣٠.

وتوكل، وطمأنينة، وما يفتح الله به من الخير، والتيسير، والعون، لمن كانت الصلاة علامة بارزة له في الأزمات.

لكنها صلاة الخاشعين ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾؛ أي الذين تلين نفوسهم وقلوبهم لله ويقبلون، ويسلمون لطاعته، ويحبون مناجاته، وتكفيهم شريعته؛ فهؤلاء هم من تأتيهم المعونة على الصلاة الخاشعة، التي يعيشها قلب المؤمن كما لو كان قد ولج الجنة، وهو لا زال في الدنيا.

- كل محزون لا يجد في الصلاة فرصة لجلاء حزنه فلن يجد فرصة أخرى.
- وكل محروم لا يجد في الصلاة عوضا لنفسه فلن يجد عوضا في حال آخر.
- بث جميع الكروب إلى لله موعده الأمثل في سجدات الصلاة.
- وموعد تطهير القلوب من أذى الحياة هو بالإحرام بالصلاة.

في قراءة الفاتحة يناجي العبد ربه فإذا قرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] قال الله تعالى: حمدني عبدي. ثم قف وكأنك تسمع هذا الجواب.

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ١.

ثم إذا قال العبد: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[1] الرحمن الرحيم قال الله تعالى: أثنى علي عبدي ثم انصت قليلا كما لوكنت تسمع هذا.

فإذا قال العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[2] ملك يوم الدين قال الله تعالى: مجدني عبدي ثم توقف وكأنك تسمع هذا يقال لك وحدك.

ثم تقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[3] وهنا قف لتستشعر أنك توحده بالعبادة وتستعينه عليها، فما أن تصل إلى اهدنا الصراط المستقيم حتى يكاد قلبك أن يطير وهو ينتظر من ربه الهدى، بقوله هذه لعبدي ولعبدي ما سأل.

- الهدى يعني لا ضلال.
- الهدى يعني لا حيرة.
- الهدى يعني لا فتنة.
- الهدى يعني أنك ستجد طريقا صحيحا آمنا للخروج من بلواك.

٤. التوبة

سبق الحديث عنها ونؤكد هنا على السعي في تحقيق شروط التوبة:

- الندم على ما فات والاعتراف بالخطأ.

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٣.

(٢) سورة الفاتحة، آية: ٤.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ٥.

- العزم على عدم العودة للخطأ.
- رد الحقوق والتحلل منها.

٥. الرضا عن الله

سبق توضيح ذلك ونؤكد هنا على أننا يجب أن نعتبر الأزمة طريقا لتطهير النفس، وتكريمها، وأن الله لا يظلم الناس شيئا.

٦. التقوى وأبواب الخير

- التقوى وكل ما يحرك الخشية في القلب.
- الصدقات فإن الصدقة تطفئ غضب الرب.
- العبادات الخفية والسعي لاسترضاء رب العالمين.
- العفو عن الضعفاء والتقرب للمساكين.

عنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: إِنَّ اللَّه تَعَالَى قَالَ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[1].

---

(١) رواه البخاري.

ما أعجب رحمة الله يفرض علينا صلاة، وزكاه، وصوما، ثم يجعلها أحب شيء نتقرب به إليه حتى نؤديها بحب، وإقبال كما يتلقاه جل وعلى بحب وقبول.

ثم يعطينا على النوافل كفالة شاملة لكل حركة نتحركها. فإين أصحاب البلاء من هذا المغتسل البارد الذي يذهب كل بلوى، ويصل كل انقطاع.

عجبا ممن يعرف هذا الحديث ثم لا يسارع في خلاصه من أزمته وكربته يتحسين الفرائض التي يؤديها كل يوم، وعجبا لمن يستكثر على نفسه تفريغ نفسه في رمضان لحسن الصيام، ويقدر على الحج فلا يحج. ثم تجده يشتكي طول كربته وشدة بلواه وهو لم يلج بابا يحبه الله، ولم يجب نداء ربه إياه.

وعجبا ممن يكثر سؤاله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واستعاذته به ولا يخطر بباله أن يتقرب بنوافل الصلوات ونوافل الصدقات، والعمرة بعد الفريضة ويسارع في الخيرات لينال بركة هذا الحديث العجيب.

قال الله تعالى :

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾[1].

تأمل هذه اللآيات التي جعلت التقوى سببا لمغفرة الذنوب، وسببا لتفريج الكروب، وسببا لتيسير الأمور،

هل تأملت أخي كيف يمكنك اختصار طريق الخلاص من أزمتك في كلمة (التقوى) ليست المشكلة في أن نقنع أحدا بأن التقوى مخرج من كل ضيق، وتيسير لكل شدة، بل المشكلة في إقناع الناس بأن يتجهوا للتقوى مباشرة حين يريدون البحث عن باب الخروج.

خشية الله، والتصرف بما يجعل العبد خائفا من ذنوبة، راجيا عفو ربه، مؤملا في رحمته هي لب التقوى وسر نمائها في القلب. وحين يرزق العبد التقوى خلال أزمته فهذا يعني أنه قد بُشّر بالفرج، مقدما. التقوى تعني الا نقبل أي حل، تمليه علينا بعض ظروف الأزمة، مما لا يرضاه الله.

التقوى تعني كف اللسان، ورد الحقوق، وتجنب الظلم، والغش، والفجور في الخصومة ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠

(١) سورة الطلاق، أية ٢-٥.

يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

٧. الذكر

ورد في فضل الذكر آيات وأحاديث كثيرة لكن كيف نتاول الذكر وكيف يكون الذكر مشهدا من مشاهد حسبنا الله ونعم والوكيل؟

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[2]، حين يأمر الله بالذكر الكثير فما السر الذي يحتويه الذكر وكثرته؟

حين يكون الله حاضرا في قلبك فسيكون سهلا على اللسان ترديد اسمه والتذذ بكل قول فيه تمجيده وتسبيحه.

كلما تأملتَ أسماء الله وتأملتَ آثارها في الكون فإنك ستكتشف أن الذكر بالنسبة لك رواء يرويك من عطش. فعلا هذا ما يقوله الذاكرون، أنهم يعطشون للذكر فإذا شغلوا عنه فإنهم يسارعون للخلوة، أو البحث عن مكان يستطيعون أن يقولوا فيه سبحان الله وبحمده دون منغص أو مشتت.

إنهم أشبه ما يكون بمن تصله رسالة طويلة من حبيبه في ضوضاء وزحمة الناس فينفرد عنهم ليعيش كل حرف منها، ويبادله المحادثة بكل مشاعره وجوارحه وفكره.

---

(١) سورة يوسف، أية ٩٠.

(٢) سورة الأحزاب، أية ٤١.

الله يا سادة شيء عظيم، وآثار ذكره تشتمل على مشاهد خفية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار.

لا أعرف أحدا ممن يديمون ذكر الله إلا ويقول لا أجد في نفسي حاجة لأن اشتكي لأحد، أو اتسلى بشكوى إلى قريب أو حبيب. لأن حاجتي لبث شكواي قد أشبعتها من تكرار (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث).

ولا أعرف أحدا ممن يتعبد الله بالذكر يشتكي الوحدة أو الغربة. لأنه لا غربة في مكان يعمره ذكر المولى ولا غربة في زمان يتردد فيه أسم الجليل.

لقد سبق الذاكرون خيول المجاهدين وأموال المتصدقين.

عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم»، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «ذكر الله عز وجل»[1].

مهما كنت مغمورا، ومهما خبا صوتك، وتنكرت لك الوجوه، ولم يذكرك أحد فلن تجد شيئا من هذا حين تذكر الله.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك

---

(١) رواه أحمد.

وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة»[١].

هناك من يذكرك في نفسه (الله).

هناك من يذكرك في ملأ خير من أهل الأرض (الله).

قضيتك لا يلحقها النسيان[٢] ما دمت لا تنس ذكر الله.

يخيم الحزن تظلم القلوب تجف الروح فيجلوها ذكر الله تعالى. وتأمل هذا الدعاء دعاء الكرب دعاء فيه تفويض ورضا وتضرع.

«اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب همي»[٣].

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) أي أن الله لن ينساك، لن يخذلك وهو على غرار قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

(٣) رواه أحمد.

الذكر قوة للروح والبدن وقوة للنفس فقد روي أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقول لا حول ولا قوة إلا بالله[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معالجة الأشغال الصعبة، وتحمُّلِ المشاق..."[2].

مهما توالت عليك هواجس الخوف والقلق فسوف تقف كل مخاوفك عند هذا الذكر.

عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يدع هؤلاء الكلمات إذا أصبح وَإذا أَمْسَى: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ مِنْ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تحتي»[3].

مهما خفي الضرر الذي تخشاه وتنوع؛ فاسم الله كفيل بإبادته ومحوه ومنع شره عنك.

عن أبان بن عثمان قال: سمعت عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يقول في صباح كل

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام المجلد ١٠.

(٢) الوابل الصيب.

(٣) البخاري

يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم ثلاث مرات لم يضره شيء».

وجاء فيه من قالها حين يصبح لم يصبه في يومه فجأة بلاء، ومن قالهما حين يمسي لم يصبه في ليلته (وليس الغرض هنا الحديث عن الذكر من كل وجه لكن الغرض تحريك الشعور بما في بعض الأذكار من العناية والكفالة والحماية واللطف الذي جعله الله سرا في هذه الاذكار بهذه الألفاظ والله لا يمكن أن يرتب الله على ذكر معين أجرا أو نفعا ثم لا يكون.

من أبرز علامات التوفيق وعلامات الهدى خلال الأزمات أن يُلهم الإنسان الذكر، ويعان عليه. وهي علامة الفرج فمن ذهل عن ذكر الله وغفل عنه فإن خروجه من بلواه سيطول، ولو خرج منها فسيعود لما هو أشد منها. إلا أن يرحمه ربه فيهديه للذكر والشكر وحسن العمل.

٨. رتل القرآن ترتيلا:

هذا المفتاح يفتح للمبتلى نافذة لا تنتهي عجائبها

أولا: تأمل معي الظروف التي نزلت فيها هذه الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ

تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾[1].

نزلت في بدايات دعوته ﷺ وفي ذروة التكذيب والعناد، واضطهاد، السابقين إلى الإسلام، وتبجح المشركين واستعراضهم لكل صور التعذيب والتحدي

لكن القرآن اختصر المسألة، فأرشد نبيه وأرشد هؤلاء المستضعفين إلى معادلة بسيطة:

عليكم قيام الليل بتلاوة القرآن، ودعوا شان المكذبين لي ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ يعني: (اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أهملهم)[2].

إن تلاوة القرآن كفيلة بأن تجعل الظالمين في مواجهة مباشرة مع الحكم العدل.

تلاوة القرآن وترتيله ليلا سوف تحول مأساتك إلى مشهد من السعادة كل ليلة.

سوف يبيت إعداؤك في نعمة ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ وسيفيقون على ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[3].

---

(١) سورة المزمل، أية ١-١١.

(٢) تفسير السعدي

(٣) سورة هود، أية ٨١.

تلاوة القرآن ستعمل على ترتيب الذهن، وشفاء الجروح وتعزية النفس المحزونة.

تلاوة القرآن سوف تمنحك حصانة نفسية ضد أي شبهات، أو إشاعات، أو شماتة، يقوم ببثها من ظلمك، أومن سعى في زيادة بلواك، ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا﴾[1].

هذه الميزة الذهبية محروم منها من يجعل القرآن آخر ما يفكر فيه حين تقع عليه مصيبة، أو ظلم، أو خسارة، أو مرض.

ثانيا: تلاوة سورة البقرة وأثرها على قلوب أهل البلاء:

سورة عظيمة القدر فإن الفاتحة تضمنت طلب الهداية للصراط المستقيم وسورة البقرة وبينت سبل الهداية. ولها من القدر ما يجعلها ذروة سنام القرآن

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ وإن سنام الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَفِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ». وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَصَحِيحِ مُسْلِم وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيث عن سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بيوتكم قبورا فإن البيت الذي تقرأ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ»[2].

---

(١) سورة المزمل، أية ١٠.

(٢) رواه الترمذي وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ

سورة البقرة سورة تضمنت أية الكرسي وهي أعظم آية في كتاب الله تعالى، وأخر آيتين فيها كفاية للمؤمن.

فعن عقبة بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنّ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «مَن قَرَأَ بالآيَتَيْنِ مِن آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ في لَيْلَةٍ كَفَتاهُ»(١).

وهي الزهراء التي في أخذها بركة فعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «اقْرَؤُوا القُرْآنَ فإنَّه يَأْتي يَومَ القِيامَةِ شَفِيعًا لأَصْحابِه، اقْرَؤُوا الزَّهْراوَيْنِ سُورَةَ البَقَرَةِ، وسُورَةَ آلِ عِمْرانَ، فإنَّهُما تَأْتِيانِ يَومَ القِيامَةِ كَأنَّهُما غَمامَتانِ، أوْ كَأنَّهُما غَيايَتانِ، أوْ كَأنَّهُما فِرْقانِ مِن طَيْرٍ صَوافَّ، تُحاجّانِ عن أصْحابِهِما، اقْرَؤُوا سُورَةَ البَقَرَةِ، فإنَّ أخْذَها بَرَكَةٌ، وتَرْكَها حَسْرَةٌ، ولا تَسْتَطِيعُها البَطَلَةُ». قالَ مُعاوِيَةُ: بَلَغَنِي أنَّ البَطَلَةَ: السَّحَرَةُ(٢).

وهي شرف لمن حفظها ومنقبة لمن وعاها.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْثًا وَهُمْ ذَوُو عَدَد فَاسْتَقْرَأَهُمْ فَاسْتَقْرَأَ كل واحد منهم مَا مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ فَأَتَى عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا فَقَالَ: «مَا مَعَكَ يَا فلان؟»، فقال: مَعِي كَذَا وَكَذَا وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ. فَقَالَ: «أَمَعَكَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «اذْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ: وَاللَّهِ مَا منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا

---

(١) رواه البخاري

(٢) رواه مسلم

أني خشيت أن لا أَقُومَ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تعلموا القرآن فاقرأوه وأقرئوه فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ لِمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَرَأَهُ وَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكًا يَفُوحُ رِيحُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَثَلَ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَيَرْقُدُ وهو في جوفه كمثل جراب وكيء عَلَى مِسْكٍ»(١).

وعن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بينما جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قاعدٌ عند النبيِّ ﷺ، سمع نقيضًا من فوقِه، فرفع رأسَه، فقال: «هذا بابٌ من السماءِ فُتِحَ اليومَ، لم يفتح قط إلا اليومَ، فنزل منهُ ملكٌ، فقال: هذا ملكٌ نزل إلى الأرضِ لم ينزل قط إلا اليومَ، فسلَّم وقال: أبشِرْ بنورينِ أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌّ قبلك: فاتحةُ الكتابِ وخواتيمُ سورةِ البقرةِ لن تقرأَ بحرفٍ منهما إلا أُعطيتَه»(٢).

ولقد رأينا من آثارها العجب في دفع البلاء، وشفاء الأسقام، وانشراح الصدور.

فما الذي تحدثه سورة البقرة في نفس وحال من يتلوها كل يوم أو كل ثلاثة أيام.

- سرعان ما يجد أن تلاوتها سهلة، رغم طولها. فلا ينتبه إلا وقد ختمها. فينال أجر التلاوة الذي يرفع من قدر المبتلى عند ربه فيحظى بإحسانه وغفرانه.

---

(١) رواه الترمذي

(٢) صحيح مسلم

- بعد عدد من التلاوات سيجد المبتلى أن نفسه تحررت من الهم، وبدأ يمارس حياته بشكل طبيعي، رغم وجود البلاء والمشكلة

- ستعمل آيات القرآن على تنظيم عقل القارئ وستهذب نفسه وتزكيها، وسيدرك واقعه ومشكلته بشكل مختلف وسيجد أن هناك فرصا كثيرة للحل.

- سيرتبط القارئ بالله، ويأنس بقربه، وسيجد أن لذة بدأت تشيع في داخله كالمسك كلما سمع كلام الله، أو سمع حديثا عن الله، أو أسماء الله وصفاته.

- سيشعر المبتلى أنه في حضن روحي لا يساويه حتى حضن أمه، وسيستغني عن استجداء العطف من أي أحد وسيشعر بقوة في قلبه تمنحه قدرة على مواجهة أزمته باتزان.

- بإذن الله سيهدى للأسباب النافعة وسيُصرف عن الأسباب التي لا بركة فيها أو تُصرف عنه. وسيقبل بفعل الممكن، وسيكفيه الله ما ليس بممكن.

- سيُفتح عليه بطاعات أخرى لأن نفسه وروحة ارتقتا.

- سيشعر بحياء من الله، لأنه يجد أن الله قد لطف به وهداه وفتح عليه، وسيجد في نفسه حاجة لكي يشكر ربه.



- سيستعيد قدراته الذهنية ويرشُد عقله، فيتمكن من التفكير الناضج في مشكلته، بدلا من التفكير تحت تأثير العاطفة، أو الانفعال والحزن الشديد.
- سيجد في نفسة قدرة للتفريق بين هواجس النفس والشيطان، وبين داعي الخير في نفسه وما يأتيه من الهام الله وهدايته[1].
- سيحب هذه السورة وسيحب تلاوة القرآن كله، وسيفتقدها إذا مضى عليه وقت ولم يقرأها.

ولا أعلم أحدا قرأها بشكل دوري؛ يومي، أو كل ثلاثة أيام، أو أسبوعي، إلا جاء يتحدث عن نفسه وكأنه اكتشف كنزا عظيما. وأبرزها أنه استعاد صحته النفسية، واتزانه الذهني، وقدرته على ممارسة الحياة، وأنه يشتاق لهذه السورة.

أما من كان له حظ من العلم الشرعي فإن غنيمته من هذا تفوق الخيال لاسيما حين يتعدى نفع ذلك إلى الناس.

٩. السكينة

ورد لفظ السكينة في ستة مواضع من كتاب الله فدعونا نعيش معا الظروف التي نزلت فيها بعض هذه الآيات:

---

(١) ما يأتي من الله فعلامته أنه لا يخالف شيئا من شرع الله وسبق ذكر بعض العلامات من كتاب تقريب مدارج السالكين

◆ **السكينة في عودة التابوت:**

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

هذه الآية وما جاء قبلها في سورة البقرة تحكي قصة بني إسرائيل الذين عصوا الله فسلط الله عليهم العمالقة (جالوت وجيشه) فقاتلوهم وسلبوا منهم التابوت، وهو صندوق فيه بقايا من الواح التوراة وعصا موسى وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ وشيئا كهذا.

فأصيب بنوا إسرائيل بالوهن والضعف النفسي فلم يستطيعوا استعادة التابوت ولا قتال جالوت، ثم إنهم ذهبوا إلى نبي لهم يقال له (شمويل) وطلبوا منه أن يختار لهم ملكا يقودهم ويوحدهم للجهاد وقتال العدو، فبعد حوار معهم أخبرهم أن الله قد بعث لهم رجلا منهم اسمه طالوت ليكون ملكان عليهم، لكنهم رفضوه ولم يقبلوه ملكا عليهم، فأخبرهم نبيهم أن هذا اختيار من الله، وأن علامة ذلك أن التابوت سيعود إليكم، وستحمله الملائكة وتأتي به. وحدث ما أخبرهم به وشاهوا بأنفسهم التابوت وقد جاءت به الملائكة تحمله حتى وضعته أمام طالوت.

---

(١) سورة البقرة، أية ٢٤٨.



وهنا قبلوا به ملكا عليهم، فقادهم للجهاد وانتصروا بإذن الله.

لكن حين تنظر لقول الله تعالى عن التابوت ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تتساءل ما قيمة السكينة التي ارتبطت مع وجود التابوت؟

السكينة حالة من الطمأنينة والوقار والثبات النفسي والروحي.

فكيف يكون التابوت مصدرا لتلك لسكينة؟

- كانت نفوس ومعنويات أكثر بني إسرائيل مصابة بالعطب نتيجة الهزائم المتكررة.
- فقدان التابوت الذي يمثل لهم ارتباطا، وحافزا، وإلهاما، وإرثا قديما، وعزيزا، لما فيه من آثار موسى وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ؛ جعلهم يشعرون بالخذلان.
- عودة التابوت سترسل لهم عددا من الرسائل:

١. عودة التابوت تثبت أن طالوت ملك اختاره الله وبالتالي فسوف يؤيده وينصره، فيحظون بالثقة فيه.

٢. أن عودته محمولا من الملائكة فيها قدرٌ من التطمين وإشاعة الثقة والأمل.

٣. أن التابوت وما فيه من آيات وآثار يعد مصدر إلهام

للنفوس بأن معركتهم مع جالوت تحظى بكفالة وتأييد من الله.

٤. أن قتال جالوت بإمكانات محدودة مقابل جيشه القوي ليست الآن مغامرة خاسرة، رغم فوارق الإمكانات.

إن أهم ما تحدثه السكينة في قلوب المستضعفين هو توقف سيل المخاوف والهلع، الذي يصاحب كل محاولة لرفع الظلم. لإن الاختلاف في الكلمة يأتي حين يحاول مجموعة من المبادرين المغامرة، في مقابل مجموعة من الحذرين يخشون التهور.

فالسكينة تطمئن قلب الحذِر ليتقدم، وتهذّب حماس المندفع فلا يتهور. والسبب بكل بساطة هو اليقين الذي يجدونه في نفوسهم والذي يمنحهم إجماعا على أن هناك نتيجة يومن بها الجميع وينتظرونها.

لقد فعلت السكينة في نفوس بني إسرائيل ما لم تفعله كل المحاولات السابقة لجمعهم والسير بهم نحو المواجهة.

السكينة تنقل معايير القبول من مظاهر الواقع (المشتت المرعب)، إلى خلفياته الغيبية (المثبّتة والمطمئنة). ولهذا فإن المبتلى ومن يعيش في أزمة ويومن بأن الله حسبه، يكثر من سؤال الله السكينة، حتى يحظى بربابطة القلب، والعزم على الخيار الأكثر بركة، مهما كانت مؤشراته غير مشجعة.

من يعيش واقعا أليما ويستقبل مرحلة مجهولة الحال ومحاطة بالمخاوف، ولا يمكن حساب آثارها، أو توقعها؛ أحوج ما يكون إلى هدى في نفسه ورسالة طمأنينة تأتيه تحدد له المسار الأكثر أمانا، والذي سيحقق له الخلاص.

وتأمل الاستخارة وكيف يصاحبها شعور بالفقر إلى الله، وأنه الهادي وحده، والقادر وحده، والعليم وحده، أن يختار وأن يعين.

هذه الاستخارة إذا فعلها العبد بصدق افتقار، وصدق إيمان بالله العليم القدير، فسوف تثمر بإذن الله نورا، وهدى، يجده المحتار في صدره، وسيُلهَم ما يدله على خيرة الله له، وسيعان عليها بالسكينة التي تجعله يرتاح لها، ويثق في عواقبها، لأنه يعتقد أنها من الله. وسُيكثِر من سؤال الله الهداية خشية أن يُضله عدوه إبليس أو يلبِّس عليه فلا يستبصر الصواب.

إن سؤال الله أن يربط على القلوب، وأن يرزقنا السكينة ليس لمجرد أن نحظى بحالة من الهدوء؛ بل لكي نطمئن إلى ما ينبغي الاطمئنان له، من فرج الله ونصره وثوابه، وكل غيب غيّبه عنا، ووعدنا به، فنحن به مؤمنون.

- **السكينة يوم الهجرة:**

قال الله تعالى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١].

حين أذِن الله تعالى لنبيه بالهجرة إلى المدينة أخذ النبي ﷺ في وضع الترتيبات، وأخذ الأسباب التي تساعد في جعل هجرته سرا، حتى لا تعلم بها قريش. فأعد الركائب، وواعد الرجل الذي سيدلهم على طريق للمدينة غير الطريق المعروف؛ حتى يوافيهم بعد ثلاثة أيام في مكان محدد. وأخذ النبي ﷺ بعض التدابير المنطقية التي تساعد على إخفاء وجهته عن قريش ومنها:

- اتجه جنوبا عكس اتجاه طريق المدينة.
- خرج ليلا.
- قام عبد الله بن أبي بكر بأخذ الغنم خلفهم حتى تمحوا آثار الأقدام فلا يهتدي قصاصا الأثر إليهم.
- توقف عن المسير لثلاثة أيام في غار جبل ثور حتى يهدأ الطلب.

كانت هذه هي الاحتياطات المتاحة التي تناسب الحال

---

(١) سورة التوبة، أية ٤٠.

آنذاك، ومع الأخذ بها فقد شاء الله أن يصل القافة (قصاص الأثر) إلى جبل ثور، بل وصلوا إلى الغار، بل إلى فم الغار.

والآن لم يعد هناك أي سبب يمكن عمله، ولا يوجد أي إجراء يمكن اتخاذه في الغار سوى الانتظار والترقب. وهذا ما حصل من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه حين وصل الكفار إلى الغار قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، والله لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا!!

ومعناه أنه ما بقي بينهم وبين رؤية النبي ﷺ وصاحبه إلا طرفة عين. فمن يتحكم في طرفة العين؟؟

موقف كهذا يحبس الأنفاس كيف يمكن لإنسان عادي أن يتصرف في لحظة مدتها أقل من لحظة؟

فما كان جواب النبي ﷺ إلا أن قال بكل طمأنينة وسكينة وثبات وثقة: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما!»، وهي بصيغة التساؤل بمعنى ماذا تتوقع حين يكون الله معنا لأن معية الله إذا حصلت فلا يوجد أي توجس أو توقع غير السلامة.

السكينة في هذا الموقف الدقيق هي إيمانه ﷺ بأن الله لا غالب له وأن انعدام الأسباب لا يلغي هيمنة الخالق وسلطانه الذي لا يعلوه سلطان.

حين تنزل السكينة تصبح اللحظات الحرجة غير حرجة وتصبح المخاوف المؤكدة، مستحيلة الحدوث.

السكينة حين تحل في قلب مكروب فإنه:

- لا يتجمد خوفا ولا يتشنج هلعا.
- بل تسكن نفسه..... فلا يجد الخوف مسارا إلى عقله.
- ويطمئن قلبه..... ويثبت واثقا بمعية ربه وكفاية مولاه.
- وتهدأ جوارحه، ويستقيم لسانه، فلا يتيه ولا يهذي بما لا يعي، ولا يقول غير الحق والسداد.

لقد كانت السكينة على رسول الله تغشاه في كل أحواله بما يليق بذلك الحال. لكنها في موقف الغار كانت في أظهر تجلياتها وأوضح أحوالها، فليس هناك حالة تختنق فيها الأنفاس مثل حالتهم يوم قال أبو بكر: (والله لو نظر أحدهم إلى موضع قدمة لرآنا) ولا يوجد في المقابل طمأنينة تفوق تلك التي أخرجت قوله: «لا تحزن إن الله معنا».

أخي المحزون الذي توقفت كل حيلة لديه:

- حين تفقد كل أسباب التصرف.
- حين يمتلك أعداؤك كل أسباب الهيمنة.
- حين لا يبقى على نهايتك إلا نظرة أو حركة أو كلمة أو قفزة صغير لعقارب الساعة.
- حين تشعر أن كل ما تملكه هو الانتظار والترقب

فاعلم أن كل تلك الحالات الحرجة تنتهي حين تُمنح السكينة وتُوهب الطمأنينة.

ولكن لن تحل السكينة في قلب ليس لديه ما يؤمن به، وبمقدار حقيقة ذلك الإيمان تكون الطمأنينة.

فطريقنا إلى السكينة حين الصدمات، وحين استحكام أغلال الأزمات هو الإيمان بالله.

- الإيمان به تعالى ربا لا رب سواه.
- الإيمان به تعالى إلها لا يعبد سواه.
- الإيمان به تعالى حاكما متصرفا فلا حاكم سواه.
- الإيمان به تعالى قادرا لا مهيمن سواه.
- الإيمان به تعالى رحيما فلا مغيث سواه.
- الإيمان به تعالى ملاذا فلا مفر إلى سواه.

الإيمان بوعده، الإيمان بوعيده، الإيمان بخبره، الإيمان بخبر رسوله، الإيمان بأن كل من سواه لا شيء، والله فوق كل شيء.

الإيمان أن مصدر السكينة منه وحده فلا تطلب من غيره.

- **نزول السكينة على المؤمنين يوم صلح الحديبية**[1]

---

(١) نحتاج لفهم هذه الآية وفق مسار (حسبنا الله) أن نستعرض قصة صلح الحديبية باختصار،

رأى النبي ﷺ رؤيا أنه دخل وأصحابه المسجد الحرام، وطافوا واعتمروا، فأخبر أصحابه ففرحوا، وأعلن أنه معتمر فتجهزوا للسفر. واستنفر النبي العرب ليخرجوا معه، فخرج في غرة ذي القعدة ٦هـ، في (١٤٠٠ أو ١٥٠٠) ولم يخرج إلا بسلاح المسافر: السيوف في القُرُب[١].

وسار الصحابة رضي الله عنهم وهم لا يشكون في أن رؤيا النبي ﷺ متحققة، فقطعوا مسافة تقرب من (٤٠٠كلم) مُحرمين بالعمرة، ومعهم الهدي مقلدا[٢] وهذا له منزلة في النفوس عظيمة. فمن ساق هديه وقلده فإن نفسه لا تطيب حتى ينحره عند بيت الله تنسكا وتقربا إليه تعالى، عملا بقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[٣].

فلما سمعت به قريش عزموا على منعه ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم من دخول مكة، وحاول خالد بن الوليد رضي الله عنه اعتراضهم بمئتي رجل لكن النبي ﷺ وصحابته لم يكن لهم رغبة في القتال. بل الرغبة كل الرغبة في الطواف بالبيت ونحر الهدي لله وحده. لذلك غيّر النبي ﷺ طريقه ليتجنب مواجهة خالد.

ولما وصل النبي ﷺ مكانا يسمى الحديبية، وهو موضع

---

(١) الرحيق المختوم.

(٢) الهدي من البقر والغنم ليذبح لله تعالى في مكة.

(٣) سورة الكوثر، أية ٢.

على حدود الحرم، عسّكرَ هناك، فلما أدّوا صلاة العصر واستقر النبي ﷺ في المكان جاءه رجل اسمه بديل بن ورقاء الخزاعي، فأخبره أن قريشا أعدت له عدة لتمنعه من البيت، أي تمنعه من دخول مكة.

فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم، ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا، وإن هم أبوا إلا القتال فو الذي نفسي بيده لأ قاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره».

فانطلق بديل بن ورقاء إلى قريش، وعرض عليهم ما قاله النبي، ﷺ، فأعرض سفهاؤهم، لكن ذوو الرأي منهم استمعوا له. فتداولت قريش الأمر فيما بينهم فرأوا أن يرسلوا له من يسمع منه.

فأرسلوا مكرز بن حفص فأجابه النبي ﷺ بمثل جوابه الأول.

ثم أرسلوا الحليس بن علقمة فلما أشرف على مكان النبي وصحابته ورأى الهدي والبدن مقلدة هاب الموقف وقال ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت.

فارسلوا عروة بن مسعود الثقفي، فكلم النبي ﷺ ودار بينه

وبين النبي والصحابة كلام، فقال له النبي مثل قوله الأول الذي قاله لمن سبقه، ثم عاد عروة وقد أبهره تعظيم الصحابة للنبي ﷺ، فأشار على قريش بقبول ما عرضه عليهم النبي ﷺ.

وفي هذه الأثناء أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لكي يؤكد لقريش غايته، وأنه جاء للعمرة ولم يأت لقتال، فلما ذهب عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تأخر ولم يعد، فأشيع أنه قد قُتل.

فلما خشي النبي ﷺ أن يكونوا قد قتلوا عثمان، بدا واضحا أنه لا مفر من القتال فدعا النبي ﷺ الصحابة إلى البيعة وهي عهد يعاهدونه النبي ﷺ على الصبر في القتال حتى الموت.

فبايعه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ جميعا تحت شجرة من أشجار ذلك الوادي وبايع النبي بيده اليمنى على اليسرى نيابة عن عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وسميت هذه البيعة ببيعة الرضوان.

ثم إن قريشا أرسلوا سهيل بن عمرو، وأرادت قريش إنهاء الأزمة وتجنب القتال ولكن مع ضمان عدم دخول المسلمين إلى مكة.

فلما جاء سهيل بن عمرو وتم الاتفاق على الصلح كانت بنود الصلح (في ظاهرها) بنودا فيها استعلاء من قريش وفيها غضاضة على المسلمين وفيه حرمان من دخول البيت.

وكانت بنود الصلح كالتالي:

١. يرجع الرسول هذا العام، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثًا، معهم سلاح الراكب، السيوف في القُرُب، ولا يتعرضون لأذى.

٢. وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين.

٣. لكل فرد وقبيلة الحرية للانضمام لأي من الفريقين، محمد أو قريش، وأي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريق.

٤. من أتي محمدًا من قريش من غير إذن وليه أي هاربًا منهم رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد أي هاربًا منه لم يرد عليه.

والأن نقف لنتأمل حجم الهزة النفسية التي ستهز قلوب وأذهان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

لك أن تتخيل ما يلي:

- قوم أصحاب عقيدة وإيمان قدموا وهم متيقنين من صدق رؤيا النبي ﷺ بأنهم سيطوفون بالبيت؛ كيف يستقبلون ببساطة فكرة الرجوع.
- قوم لديهم عقيدة وتعظيم لشعائر الله، ومعهم البدن مقلدة كيف سيتقبلون ببساطة نحرها في واد خارج

الحرم وكيف سيتقبلون التحلل من الإحرام في هذا المكان غير المقدس.

- مسافة طويلة يقطعها (١٤٠٠) رجل مع زادهم وركائبهم كلها شوق لرؤية البيت والطواف به ثم تنتهي الرحلة بالعودة قبل تحقيق الغاية.

- كفار يفرضون شروطهم (فيما يظهر) ويتحكمون في صياغة بنود الصلح، ويقررون عدم السماح بدخول مكة هذا العام. كيف ستقبل النفوس الحرة هذا النوع من (الاستفزاز)[١].

- قوم بايعوا على الموت وجاهزون للقتال بكل بسالة فلِمَ يقبلون بالخضوع (حسب ما يظهر لهم).

كل هذه المسوغات سوف تجعل النفوس تغلي، والقلوب تضطرب، والأذهان تحار في فهم ما يحدث، لدرجة أن عمر بن الخطاب راجع النبي ﷺ في هذا الأمر، ووجد الصحابة رضي الله عنهم صعوبة نفسية في تمرير الحدث على نفوسهم.

فكانت الحاجة ماسة إلى إجراء يناسب الأزمة.

إجراء يناسب طبيعة الأزمة، وطبيعة الأزمة هنا أنها أزمة نفسية.

---

(١) هذا فيما يظهر لمن يقرأ بنود الصلح.

ولكن لأن هؤلاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من عادتهم ألا يجدوا صعوبة في المسارعة إلى قبول أمر الله فهم يعيشون بشعار (سمعنا، وأطعنا) لكن بشريتهم أوجدت بعض المشقة في النفوس ومن هذه حالتهم، فإن الله وليهم ومولاهم، لا يتركهم بلا مدد وغيث يليق بقوم مؤمنين لا يجادلون بالباطل، ولا يسألون ما ليس لهم به علم.

فأنزل عليهم السكينة، فكانت بلسما شافيا، ونورا هاديا، استبصروا به طريق الرشد في التفكير، ويزيد به إيمانهم بوعد الله، وبالرؤيا التي صدقوها، وبالكفالة التي اعتادوها من ربهم الكريم. قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١).

يقول السعدي في تفسير هذه الآية: "يخبر الله تعالى عن منته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت، ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذا الحال، فيزداد إيمانه، ويتم إيقانه، فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لما جرى ما جرى بين الرسول ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها

---

(١) سورة الفتح، أية ٤.

غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيمانا مع إيمانهم"[1].

لاحظ أخي القارئ وصف الشيخ السعدي للأزمة:

المحن المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوّش القوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس.

ولاحظ كذلك: وصفه للدواء الناجع لهذه الحالة **(فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت)**.

ولاحظا النتيجة المهمة لحصول السكينة **(فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذا الحال، فيزداد إيمانه، ويتم إيقانه)**.

أتدرون ماهي أهم نتيجة حصلت للمؤمنين بعد أن غشيتهم السكينة؟

تأملوا معي حوار عمر مع رسول الله ومع أبي بكر:

جاء عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبي ﷺ فقال: ألست نبي الله حقا؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: «إني رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصري»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي

(١) تفسير السعدي.

البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا قال: «فإنك آتيه ومُطوِّف به»[1].

ثم جاء عمر إلى ابي بكر وقال نفس الكلام فأجبه أبوبكر: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا[2].

كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبني استنتاجه على المقدمات التي ذكرها، وهي أنهم على الحق والدين، وأنهم موعودون بالطواف بالبيت ولكن حين أضاف إليها الكلمة التي قالها رسول الله ﷺ وأبو بكر وهي: أن الأمر من الله فَهِمَ منها ما يلي:

أن الذي وعدك هو الذي أنزل أمرا بقبول الصلح. وهو الذي يتولى النهاية ويحسمها. لذا فإن مهمتنا في هذه الحالة التسليم فحسب.

فلما تبين لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الأمر من الله وليس اجتهادا، وأن جميع المقاييس تصبح غير ذات جدوى حين يأتي حكم الله، وأمره، وخيرته لعباده، سلّم لأمره تعالى ورضي به وسكنت نفسه[3] ولقد كان عمر وغيره ممن بايع

---

(١) تفسير بن كثير.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) سؤال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان لحكمة يريدها الله ومن هذه الحكم أن الله جعله مثالا لنا ليجيب على تساؤلات أنفسنا وإلا فعمر كغيره من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين غشيتهم السكينة ورضي الله عنهم ببيعة الرضوان لكن يجب أن نفهم أن الحدث كان درسا لهم ولنا ولذا جعل الله فيه من المواقف ما يناسب حالنا ويعيننا على فهم مراد الله وكيفية تلقي أوامره وأحكامه.

تحت الشجرة وقال الله عنهم: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1].

لقد علم الله ما في قلوبهم من الصدق والوفاء فأنعم عليهم بالسكينة في الموقف، وأثابهم على ذلك فتحا قريبا، فقد كانت الحديبية مقدمة مؤثرة في فتح خيبر وفتح مكة بعدها.

لذا فإن جميع ما صدر منهم من جدال أو تأثر لم يكن ناتجا عن شك، أو تمرد، أو طبيعة سيئة كبني إسرائيل، بل كان نابعا من حرصهم على علو الحق وظهور كلمة الله. ولهذا أنعم الله عليهم بأمور:

- الرضوان بعد البيعة.
- السكينة بعد الصلح.
- زيادة الإيمان.
- فتح خيبر والمغانم.

لقد كانت آثار السكينة فاعلة في نفوس المؤمنين ففي كل خطوة من حدث الحديبية كان هناك ما يثير النفس ويدفعها للثوران من شدة الاستفزاز والكبرياء ومنها:

---

(١) سورة الفتح، أية ١٨.

- حمية الجاهلية وهي عزم قريش أن يرجعوا ولا يدخلون المسجد الحرام.
- رفض سهيل بن عمر أن يكتب في وثيقة الصلح (بسم الله الرحمن الرحيم).
- رفض سهيل بن عمر أن يكتب في وثيقة الصلح محمد رسول الله.

ولأجل هذه فإن الله بيّن هذه الحال، وأن السكينة كانت لمساعدتهم رضي الله عنهم على تجاوز كل هذا، والتوجه نحو مراد الله، والتمسك بكلمة التقوى التي تميزهم وتعزهم، وهم أولى بها وأحقّ ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

كم مرّة حلّ بالناس من الحيرة والقلق والاضطراب ما يجعلهم لا يفهمون ما يجري، ولا يمكنهم توقع ماذا سيحدث، وبالتالي لا يدرون ماذا يفعلون؟

كم مرة أدت حالة الحيرة، والقلق النفسي، والهزة النفسية، وتشويش العقول، إلى فوضى واختلاف، وارتكاب أخطاء، وسفك دماء، وتدمير مقدرات، وإضعاف القوة، وتسليط الأعداء، وضياع الإيمان، وظهور الشبهات، وانفلات الشهوات.

(١) سورة الفتح، أية ٢٦.

كل ذلك حين فقد الناس السكينة، التي تثبتهم وتزيد إيمانهم بالله، وما عنده، من شرع، وحكم، ووعد، ووعيد، يؤدي إلى طمأنينة النفوس لصوت السنة، والكلمة الجامعة.

الم تمر على أحدنا مواقف لا يدري ما يقول، ولا يدري كيف يفكر، ولا يدري كيف يجيب، أو حتى كيف يسأل، لدرجة أنه يعاني ولا يدري مِمَ يعاني، ويطلب المساعدة ولا يدري مِمَ يطلبها، ويشتكي ولا يدري مِمَ يشتكي؟!

ونتيجة لهذه الحيرة والفوضى الذهنية قد تمر بنا فإن المشاعر تثور كالبركان.

- فيتطرف الخوف لدرجة الهلع.
- ويتطرف الحزن لدرجة الإحباط واليأس.
- ويتطرف التوتر لدرجة الغضب الشديد.

ويصبح الإنسان مستعدا، لكن استعداه للفوضى، للتهور، للحماقة، للانقياد لأي ناعق، أو فكرة مدمرة. فالمهم أن يفعل شيئا، فلم يعد يحتمل الوقوف كالمكتوف، لذا فإن أي فرصة انطلاق تعرض عليه أو تَرِدُ على ذهنه ستحظى لديه بالقبول ولو كانت مجازفة.

بينما حين تحل السكينة، وتهدأ النفس وتقبل خيار الله وتلهم الذكر.

فيستنير العقل، ويطمئن القلب، ويستوعب الذهن، ولا يمكن لأي فكرة طائشة أن تغريه، ولا يمكن لأي دعوة مسمومة أن تجد لديه قبولا.

وأهم شيء في الأمر أن الإنسان الذي تغشاه السكينة لا يشعر أن مكتوف اليدين، وبالتالي فلا يجد حاجة ماسة لفعل شيء أكثر من البقاء ساكنا، ولكنه سيشعر أنه بسكونه هذا يكون إيجابيا، لما في السكون من أعمال وحياة وحركة للقلب، من التسليم، والرضا، ولما فيه من الإيمان، واليقين، ولما فيه من انتظار خيرة الله وهداه.

إن الاستعداد الذي يحظى به أهل السكينة هو جاهزيتهم لاتباع صوت الوحي؛ يتبعونه وهم يدركون بثباتهم أنه الصوت الأكثر أمانا ورشدا والأحسن عاقبة(١).

- **السكينة يوم حنين**

بعدما فتح الله لرسوله مكة، خرج النبي ﷺ لقتال هوازن، في جيش قوامه عشرة آلاف، وفيهم من قريش ومن أسلموا حديثا وبينما هم في الطريق قال بعضهم: (لن نغلب اليوم من قلة)؛ فما نفعتهم كثرتهم ولا أغنت عنهم شيئا.

---

(١) الدراسات النفسية تؤكد أن أي فرد يتعرض لهزة نفسية أو مشكلة حياتية فيبادر للتفكير الذي يمنحه الهدوء والاسترخاء فإنه يتجاوز حالة الهلع ويقي نفسه التصرف الخاطئ ويكون أكثر استفادة من النصائح.

حيث انهالت عليهم سهام هوازن في وادٍ ضيق كانوا قد كمنوا فيه، فلما تفاجأ جيش المسلمين بالسهام تنهال كالمطر من جنبات الوادي، وهم غير مستعدين، اختل نظامهم وتفرقوا حتى ما يدري أحدهم ماذا يفعل ولا أين يتجه، فصاح منادي النبي ﷺ، بالمهاجرين والأنصار، وبأصحاب سورة البقرة، وبأصحاب الشجرة؛ فعادوا والسيوف في أيديهم كأنها الشهب. فأنزل الله عليهم السكينة وأيدهم بالملائكة، وقذف في قلوب الكافرين الرعب.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وصف الأزمة يوم حنين:

- لقد تسببت حالة العجب التي حصلت في قلوب البعض إلى نسيان أهم مقومات الثبات والنصر، وهو الفقر إلى الله، واستجلاب معيّته وتأييده.
- بلغت الحالة التي وصلت إليها النفوس أن الأرض على سعتها ضاقت عليهم.

---

(١) سورة التوبة، آية ٢٥-٢٦.

- لم يجد الأكثرية غير الفرار خيارًا متاحًا في لحظة اضطراب النفوس، لما حصل من الذهول والصدمة.
- كانت الصدمة مفاجئة وكبيرة مما عطل الأذهان عن تدارك الوضع.

وصف حالة الخروج من الأزمة:

- ثبات النبي ﷺ كمثلٍ أعلى للإلهام والاقتداء... بأبي هو وأمي.
- ثبات ما يقرب من ثمانين من الصحابة رضي الله عنهم أصحاب المناقب والإيمان.
- استجابة أصحاب الأرصدة الإيمانية الذين يحملون أوسمة اليقين من المهاجرين والأنصار.
- عودة أهل سورة البقرة بما في صدورهم من آثار كلام الله.
- التفاف أصحاب الشجرة حول النبي ﷺ وهم أهل التجربة الفريدة مع الهزّات النفسية وهم الذين علِم الله ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم يوم الحديبية.

وكما سبق فإن الأزمة كانت على مستوى القلوب والظنون. ولهذا كانت النتيجة زعزعة الثبات ثم الفرار.

والخروج من الأزمة كان بسبب ما في القلوب من إيمان وثبات، وكانت النتيجة منّة الله عليهم بنزول السكينة.

السكينة كانت هي الرابط المشترك لتوحيد الصفوف، وتثبيت النفوس، وخلق القوة الهائلة التي لا تفتتها المخاوف، ولا تزعزعها الظنون.

في موقف كهذا: كيف يمكن لأعتى قائد (غير رسول الله) أن يستعيد قوة جيشه، وتوحيد صفوفه وتنظيمها.

في حالة من الذعر والفرار كهذه: كيف يمكن لأكثر الناس ثباتا أن يسيطر على نفسه، وانفعالاته، وينظّم ذهنه، ويختار القرار السليم بدلا من الفرار.

إن غوث السكينة التي غشيتهم مع رصيدهم الإيماني السابق، وسابقة ثباتهم في المحن والزلازل والمفاجآت؛ جعلتهم في حصانة من كل ما أفرزته المعركة من رعب وذهول. لقد كانوا في انسجام مع أرواحهم المؤمنة بالله فاستحقوا مدد السماء وأيدهم الله بجنوده (الملائكة).

أما الكفار فكانوا في البداية في انتظام تام، وامتلكوا زمام المبادرة. لكن ما أن قابلهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعُدّة الإيمان ورصيد التوبة والرضا، وأكسير السكينة، حتى اكتشفوا وعلموا أنهم يقاتلون نخبة من الناس لم يروها من قبل. ثم إن الكفار فقدوا اتزانهم النفسي فورًا، ووقع الرعب في نفوسهم فخارت قواهم الحسية بمجرد أن خارت قواهم المعنوية، حتى أصبحت المعركة بين فريقين:

فريق تغشاه السكينة، وتؤيده الملائكة، وفريق قذف الله في قلوبهم الرعب تخلّى عنهم إبليس وأفلست شجاعة، وحميّة الجاهلية، وخارت كل العزائم.

حين فقد الكفار الاتزان النفسي فقدوا كل تكتيكاتهم المعدّة مسبقا، وخسروا كل ما حققه لهم عنصر المفاجئة. وأصبحوا صيدا سهلا، وغنيمة متاحة.

لم يخطر ببال الكفار أنهم يقاتلون من تلقّوا تدريبا مكثفا في التعامل مع المفاجئات، والهزات، والقلاقل، والفواجع، بهذه الصورة!!

يقول السعدي عند تفسير هذه الآية: "﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، والسكينة ما يجعله اللّه في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفظعات، مما يثبتها، ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم اللّه العظيمة على العباد[1]".

كيف نستجلب السكينة؟

- قول إنا لله وإنا إليه راجعون.
- الدعاء وسؤال الله أن يربط على قلوبنا وينزل علينا السكينة.

---

(١) تفسير السعدي سورة التوبة.

- تلاوة آيات السكينة أو سماعها وتكرار ذلك.
- الإيمان بأن خِيرة الله خَير من خِيرتنا لأنفسنا.
- حسن الظن بالله.
- التوقف عن التفكير السلبي، الذي يبعث القلق، وقطع الأفكار التي تَرِد على الذهن من النفس، أو من الناس.
- الاستغفار وقول لاحول ولا قوة إلا بالله.
- تكرار قراءة القرآن أو سورة البقرة.
- الذكر، والأذكار.

١٠. فعل السبب

لا يوجد إنسان يحتاج لأن نقنعه بأن فعل الأسباب مطلب من مطالب الحياة، ومن يشتكي من همّ أو مشكلة فهو في الأصل يشتكي لأنه لم يجد أي أسباب ليتخلص من همّه أو مشكلته.

لكن حين تقع الأزمة فالناس على ثلاثة أصناف:

- صنف يبالغ في الاعتماد على الأسباب، ولا يرتاح إذا لم يجمع أكبر قدر ممكن من الأساليب. فهو يرى أنه إذا لم يكن هناك وساطات تتدخل، أو أموال تبذل، أو حلول عملية عاجلة، فلن تُحل أزمته أبدا.

- صنف كسول لا يريد أن يبذل أي جهد حتى الأسباب المتاحة والطبيعية لا يحاول فعلها.
- صنف يقوم بالأسباب المتاحة وكلما تيسر له سبب فعله، ويحاول الحصول على بعض الأسباب فيبذل الجهد الطبيعي بدون مبالغة. لكنه كلما فعل سبب دعا الله أن يبارك في ذلك السبب لأنه يعلم أن الأسباب لا تنفع إذا لم يجعلها الله نافعة.

مما سبق يتضح أن التصرف الصحيح هو الثالث وهو ما يسمى بالتوكل، فما هو التوكل؟

التوكل يتكون من شقين:

١. عمل قلب: (اعتقاد أن الله هو النافع الضار، وأنه هو وحده من يملك القضاء والحكم، وإليه تصير الأمور، وأنه مسبب الأسباب، ومن يملك الإذن بنفاذها).

٢. عمل جوارح: (بذل السبب، والبحث عن الفرص المتاحة للاستفادة منها).

كيف نوازن بين بذل السبب وبين الاعتماد على الله؟

- لا يحدث في هذا الكون شيء بغير علم الله وإذنه.
- سنة الله في الحياة أنها قائمة على نظام، ومن فهم هذا النظام استفاد منه لأن الله جعله مفيدا وفق طريقة

معينة. فالتوفير سبب للحماية من الفقر، والإسراف يهدر الأموال. والزراعة سبب للحصاد، والسم سبب للوفاة. وهذه تسمى المبادئ الحركية للحياة. وإذا قلنا أنها مبادئ فهذا يعني أن من يخالف أي منها فسوف ينال عاقبة المخالفة. فمن خالف قاعدة الاعتدال في النفقة ستحصل له عاقبة المخالفة وهي فقدان المال ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[1]، ومن مبادئ حركة الحياة أن إهمال وسائل السلامة تؤدي للهلاك فعن أَبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: احْتَرق بيْتٌ بالْمدينَة عَلَى أَهله منَ اللَّيْل فَلَمَّا حُدِّث رسولُ اللَّه ﷺ بشَأْنهمْ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ»[2].

- أعظم قوانين الحياة قانون العبودية. ومعناه أن جميع الخلق عبيد لله، مقهورون له، ومفتقرون إليه، فلا يوجد عبد يملك حرية التصرف المطلق بدون علم الله، ولا يمكن لأحد فعل شيء لم يقضه الله ويأذن به. فالله يملك الإنسان ويملك كل مبادئ حركة الحياة.

- حين نخالف مبادئ الحياة نقع في عواقبها التي جعلها الله مترتبة عليها، وحين نخالف العبودية وننسى أن كل شيء مرده إلى الله فإننا نخالف التوكل.

---

(١) سورة الإسراء، أية ٢٩.

(٢) متَّفقٌ عَلَيه.

- الاتزان القلبي في التعامل مع الأسباب حين نتمكن منها.

وتتوفر لنا: أن نحترم قانون الحياة ونستفيد منه، ونعمل بالأسباب التي فيه. لكن في اللحظة نفسها لا نفرح كثيرا حين يصبح لدينا أساب محكمة ومنضبطة وقوية. لأننا بهذا الفرح سوف ننسى أنها بدون إذن الله وبركته فلن تنفعنا شيئا، لهذا فإننا ندعوا الله أن يبارك في الأسباب التي فعلناها، وعلينا أن نعترف داخل نفوسنا أنه بدون عون الله فإننا لن نملك أيا من هذه الأسباب أصلا وبدون تسخيره فلن تفيدنا حتى لو ملكناها.

- الاتزان القلبي في التعامل مع الأسباب حين نفقدها.

أن لا نشعر باليأس. فالأسباب التي فقدناها لن تنفع من دون الله حتى لو حصلت. ولهذا يزيد توكلنا على الله، ونستغني به، ونكتفي بعونه، وعنايته، ليغنينا عما عجزنا عنه من أسباب، ونعلم أننا لم نخسر شيئا طالما أن هناك ربا هو المتصرف الرحيم. وأن حاجتنا إلى الله في وجود الأسباب وفي عدمها واحدة.

وخلاصة ما سبق:

أننا حين تحل بنا الأزمات نبدأ بإرجاع الأمر إلى الله الذي قدره وإذن بوقوعه، وهو الذي يقدر الفرج ويأذن بوقوعه، ولا يمكن لأي أحد أن يحقق شيئا لم يمكنه الله منه.

ثم نلتفت ماهي الأسباب والفرص المتاحة فنأخذ بالمباح منها ونسأل الله البركة فيها لأنها بدون ذلك لا تنفع.

فإذا فعلنا أفضل الأسباب المتاحة فإن نفوسنا لا تفرح فرح الاستغناء بالأسباب التي توفرت. بل نفرح بنعمة الله علينا أن هيأ لنا أسبابا. وفي الوقت نفسه نبقى في حالة وجل ونسأل الله أن ينزل رحمته، وعافيته وعونه، وبركته، وتوفيقه، وألا يكلنا إلى أنفسنا. ونكرر كثيرا: (يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين)[1].

وإذا لم نجد أفضل الأسباب فلا نقلق ولا نحزن، لأننا بتوكلنا على الله نستغني عن الأسباب ولا نحتاج إلى أن نشق على أنفسنا بل نهدأ ونطمئن ولا نضطرب وتسكن نفوسنا لقدرة الله، ورحمته، وعفوه ولطفه بعباده.

فالمؤمن المتوكل حقا يعمل وقلبه متعلق بالله، يعني أنه مستريح ومطمئن لما عند الله.

بخلاف الذي لا يعمل، كسلا وتسويفا، فهذا ناقص التوكل ولو ادعى أنه معتمد على الله، ليبرر كسله وتواكله.

---

(١) ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به: أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين. قال المنذري: رواه النسائي والبزار بإسناد صحيح والحاكم وقال: صحيح على شرطهما. اهـ. وحسنه الألباني.

تنبيه مهم:

المعتمدون على الأسباب والفرحون بها، الذين لا يشعرون بحاجة للدعاء، أولا يحرصون على سؤال الله العون والتوفيق، يبتليهم الله بأن يقطع عنهم معونته، ويدعهم للأسباب التي ارتاحوا لها واعتمدوا عليها، فتخذلهم وتتخلف توقعاتهم، فعندها يعلمون أنه ليس لهم إلا الله.

بعض من اعتادوا الثقة في الله، قد يبتلون بالغرور بأنهم ليسوا بحاجة للسبب، فيكلهم الله إلى اعتدادهم بأنفسهم، فلا يغني عنهم شيئا فيضطرون إلى الأسباب، بأشد مما كانوا. حتى يعلموا أن الثقة بالله إنما تكون لأن الله أهل العفو، والعون، واللطف، والرحمة بخلقه، وأن الخلق غير مستحقين لنعمته، إلا بإحسانه، ورحمته. نعم رحمة الله قريب من المحسنين ولكن إعجاب المحسن بإحسانه ينقض إحسانه.

فقم أخي المبتلى بفعل ما يتاح لك، وتحرك بما تستطيع، وتلمس الفرص وخذ بها، وتجنب العقبات، وأسال الله دوما أن يغنيك عما تملك، وأن يكفيك ما لا تملك، وأن يرزقك الفقر إليه، وحسن الاستعانة به، والتوكل عليه.

وكلما انفرطت من يديك الأمور اسأله السكينة، وثق به وأحسن ظنك بمولاك، وأعلم أن عافيته أوسع لك، واسأله أن يدلك، ويرشدك، ويدبر أمرك. وكلما عجزت عن شيء، أو

أخافك شيء لا طاقة لك به، فاعتصم واستجر به تعالى، وفوض إليه أمرك. وسيقيك سيئات ما يمكرون.

١١. الصبر

معظم ما ذكرناه سابقا إنما هو من مكونات الصبر ومما يقوي صبر المؤمن على ما يصيبه، ونضيف هنا ما يتعلق بعادات النفس وتحملها، فالصبر عبارة عن ثلاثة أجزاء:

١. إيمان: بمعنى الصبر بالله ولله ومع الله[١]:

- بالله: أي أن المبتلى يسأل الله فإن يفرغ عليه صبرا، وأن يعينه على حسن القول والعمل فيما ابتلي به، ويعلم يقينا أنه بلا عون الله له فلن يستطيع الصبر، وسيفقد قدرته على التحمل، وقدرته على انتظار الفرج، وستحيط به الظنون حتى تخرجه عن صبره، وتحمله إلى الحماقات، والفتن، وسوء التصرف، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[٢].
- لله: أي أنه يصبر محبة لله، ويصبر لأن الصبر عند الله محمود ومحبوب، ويريد أن يُرِي الله من نفسه خيرا، فتجد المبتلى حين ابتلاه ربه رضي عن الله

(١) تقريب مدارج السالكين منزلة الصبر بتصرف

(٢) سورة النحل، أية ١٢٧.



واستعان به، في بلواه واجتهد في تلمس كل وسائل الصبر، لأن الله يحب الصابرين. وهذه النية تمنح المبتلى لذة في صبره وتسلية في مصيبته.

- مع الله: يعني خلال مدة صبره فإن المبتلى دائما يسأل نفسه ماهو مراد الله مني حين ابتلاني؟ وما مراده مني أثناء مدة الابتلاء، وما مراده مني بعد انكشاف البلاء، ففي كل مرحلة من مراحل أزمته؛ يراقب شرع الله ويفعل ما يرضيه، وكلما خطر بباله طريقة ليتخلص بها من البلاء، عرضها على قلبه هل يليق هذا بحال الصابرين؟ وهل يريد الله مني غير ذلك؟

٢. انتظار: يعني قضاء مدة في البلاء في انتظار الفرج

ولا يمكن لأي إنسان تحمل ضغط الأزمة وثقل البلاء مدة طويلة مالم يكن له في ثنايا الأزمة عمل مع الله يجدد به حياة قلبه ويشعر فيه بالتقدم، وينسيه طول الانتظار، وخير ما يرزقه الله المبتلى حتى لا يستبطئ الفرج هو الثقة في وعد الله، وأن يفتح له في العبادات، والذكر، وترتيل القرآن.

وكلما عرضت على المبتلى حالة تفقده صبره وتجعله يستعجل النهاية فما عليه سوى قراءة سير الرسل

والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وما حصل لهم من ابتلاءات ثم يتأمل كيف استجاب الله لهم، ونصرهم.

٣. معالجة: يعني أنه كلما عرضت على القلب فكرة تضعف الصبر، قابلها المبتلى بفكرة تنقضها، وتبطل تأثيرها على النفس. والمعالجة تكون على مستويين (الأفكار والخواطر والعادات والرغبات):

أ. معالجة الأفكار والخواطر:

لأن الذين يعانون من كربة، أو أزمة؛ ينهال على عقولهم سيل من الأفكار، فمرّة أفكار فيها تخويف، أو إرجاف للقلب، ومرة فيها تذكير بمواضع الألم والحزن، ومرة تشكيك في عاقبة الصبر، ومرة خواطر مدمرة تدعو المبتلى لفعل ما لا تحمد عقباه، حتى ينسى حزنه ومشكلته مثل المسكرات، أو البيوع المحرمة، أو قبول الكسب الحرام، أو السحر، أو الخيانة، حتى يسرع بالتخلص من معاناته. وفي هذه الحالة فإن أنجع علاج هو كثرة الذكر، وكثرة سؤال الله الهدى، والاعتصام بالصلاة، وكثرة الدعاء بالتوفيق، ومحاولة الإجابة على أي فكرة سلبية فيقوم المبتلى بينه وبين نفسه بردّ أي شيء يقلل من ثقته بربه. ومراجعة المثبّتات، والمبشرات، وآيات السكينة.

ب. معالجة العادات يعني الرغبات التي تضعف الإرادة. ومعناه أن المبتلى عليه أن يقاوم رغبات نفسه، حتى يكتسب قوة شخصية يستطيع بها اكتساب (لياقة نفسية) فيستطيع تحمل الحرمان، ويستطيع تحمل الآلام. وأكثر الناس تحملا لطول المعاناة، هم الذين كانوا أكثر جدية في معاملة أنفسهم إذا رزقوا الثقة بالله.

هل دائمًا نستطيع أن نصبر؟[1]

لا ليس دائمًا نستطيع الصبر، لأننا أحيانا لا نقتنع بجدوى الصبر، لأن الناس عادة ما تترك الصبر بحجة أنه لا مجال للصبر. مع العلم أنه يمكننا أن نصبر، ومن حِكَم الصيام، أنه يثبت للإنسان قدرته على الصبر. فيكتشف هذه القدرة لديه. وهذا من اكتشاف الذات وهو أحد سبل فهمها.

فحين قررنا أن ندع الطعام ولذته، والجماع ومتعته، وكل ما ألفت النفس أن تجد فيه راحتها من الأفعال، والتي من بينها الجدال والتخاصم، تحقيقًا لرغبات النفس؛ حين قررنا أن ندع ذلك كله فوجئنا بأننا نستطيع أن نصبر عنها رغم ما فيها من الصعوبة.

إذن الصبر ممكن، ولكن أين المشكلة؟

المشكلة أننا نخلط بين إمكانية الصبر ووجود المعاناة

---

(١) أدوات رجل الدعوة (بتصرف)

فيه، إذ أن من طبيعة الصبر المعاناة. ومن يتحمل المعاناة ويستيقن حسن النتيجة فإنه يصنع لنفسه قوة قائدة، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيمن تنازعه نفسه ويستصعب الصبر: "فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه، وتارة يوطن نفسه على الصبر ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره: كمن دخل في طريق مخوف مفض إلى غاية الأمن وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر، وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره، ويقينه، رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها"[1].

فإذا كنا نوقن بحسن النتيجة فإن جهدنا إذن سوف ينصب على إمكانية التعايش مع المعاناة التي تلزم الصبر غالبا.

وعلينا أن نقف على هذه الأمثلة والتساؤلات لنكتشف الصبر الذي حث عليه الوحي لأنه أقوى وسيلة لمعالجة الأزمات عبر التاريخ.

كيف تجاوز هؤلاء الضعفاء أزمة القهر؟

بنو إسرائيل عاشوا القهر في حكم فرعون، وكانوا خدمًا وضحايا لنزوات السادة والملوك من آل فرعون، توالت عليهم

(١) ابن القيم، إغاثة اللهفان، ص ٦٩.

المظالم حتى كان أطفالهم بين رعب القتل وعذاب السخرة في الخدمة، وحين أرسل الله لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كان من مهام رسالته تأهيل بني إسرائيل للنصر، وكان من بين إرشاداته لهم، كلما اشتكوا من زيادة الظلم؛ الصبر والأمل. قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وتخيل من سيقتنع بهذا التوجيه؟ إذا وجد أناس مستعجلون يقولون نريد حلا عمليا، نريد حلا يرفع المعاناة؟

لكن الواقع أثبت أن ما ارشدهم إليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الصبر والأمل، كان الطريق الأفضل لرفع المعاناة، ففي يوم من الأيام انتصر هؤلاء الضعفاء، ولم تقف صورة النصر عند هلاك الظالم، بل ورث هؤلاء الضعفاء أرضا وملكًا. وحين يوجز لنا القرآن قصة النجاح هذه، ثم يركز سبب حصول النصر في الصبر فلأنه المفتاح الذهبي الذي له الفاعلية التالية:

- الأكثر تأثيرًا في تأهيل نفوس الناجحين.
- الأقوى فاعلية في تغيير الواقع.
- سبب قابل للتعلم.

(١) سورة الأعراف، آية: ١٢٨.

فيختصر القرآن القصة في أهم مكوناتها، ومن بين هذه المكونات دور الصبر في تغيير النتيجة ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[1].

ويبقى هذا الدرس قابلاً للتطبيق لأزمنة ومواقف أخرى، وحين تتغير الأزمنة وتختلف الأمكنة، نجد أن الصبر لا يفقد صلاحيته، ولا فاعليته،، حتى مع اختلاف الزمنة والأمكنة رغم تغير الظروف. وتأمل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2].

لا تغيير لهذا القانون أن الصبر عادة الناجحين وطريق خلاص المبتلَين. إن ما يربو على ستين آية في كتاب الله تعرض الصبر كأقوى أدوات قيادة النفس، بل إن التوجيه بالصبر والأمر به غالبًا ما يأتي في حالة الشعور بالعجز، والشعور باليأس، وهذا يقدمه كأداة شخصية، يرجع قرار استخدامها للشخص نفسه، دون أي سلطة لأحد عليه في هذا القرار؛ فالصبر قيمة، ومهارة ذاتية كفيلة بقيادة النفس حتى لو كانت هذه القيادة في عكس اتجاه رغبات النفس ولذائذها.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣٧.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٣٤.

من أين نستمد الصبر؟

في هذه القصة القرآنية شرح لكيفية التزود بالصبر.

في قصة بني إسرائيل مع نبيهم حين قالوا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1].

لقد ملَّ بنو إسرائيل قهر جالوت وظلمه وتمنوا لو يقاتلون في سبيل الله للتخلص من هذا البلاء، لكن نبيهم نَبَّه لقضية الصبر وأنها من أقوى أدوات الثبات في الأزمات، فقال: : ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ ولكي يؤكدوا له أنهم سيصبرون استحضروا المحفزات التي تدفعهم لقبول المسؤولية، وتحملها فقالوا: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ لكن هذه المحفزات وحدها لا تكفي حتى تجعل النفوس تقبل على القتال.

وهذا ما حصل من كثير منهم، وهم الذين نفد رصيد الصبر لديهم عند مجرد إحساسهم بجدية الأمر، وأن فراق المتعة والرغبات أصبح أمرًا واقعًا ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا

(١) سورة البقرة، آية: ٢٤٦.

إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ القليل منهم قرروا تحمل المعاناة التي ترافق الصبر دائما، لكن هذا القرار سيستمر الثبات عليه بمقدار حجم الرصيد الشخصي الذي يتحلى به كل فرد، أي بمقدار ما لديه من قوة على رغباته، أو ما لديه من يقين بوعد الله أن ينهي معاناته، فكلما كان هناك قدرة أكبر على قهر النفس، وكلما كان الفرد قد مارس مع نفسه مواقف سابقة تغلب فيها على هواه، كانت قدرته على الصبر أكثر.

ولهذا سرعان ما نفد رصيد الصبر لدى بعض بني إسرائيل عند ثاني اختبار ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾[1].

عند هذا الاختبار لم تثبت النفس أمام مغرياتها، لقد كانوا يدركون أن ما يفعلونه من شرب الماء من النهر يعني التراجع عن الفكرة التي كانت بالنسبة لهم أمنية، لكنهم إلى حدٍ ما ظلموا أنفسهم حين تجاهلوا ما يدركونه من الحق، وفعلوا ما يرغبونه.

أما الذين اعتادوا أن يقولوا لرغباتهم (لا)، قالت لهم أنفسهم اليوم (نعم). فحين نحتاج إلى قيادة أنفسنا قيادة خاصة تقتضيها الأزمة، فإننا ندفع ثمن ما تعودناه في السير

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٤٩.

مع رغباتنا، أو نجني مكافأة ما تعودناه من حسن التحكم فيها. يذكر القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير هذه الآية: "رخص للمطيعين في الغَرْفَةِ ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال، وبَيَّن أن الغرفة كافية لدفع ضرر العطش عند الحَزَمَةِ (الحازمين) الصابرين على شظف العيش، الذين هممهم في غير الرفاهية"[1].

وهنا يتضح ما تفرزه العادات (عادات الرفاهية أو الفوضى، والتراخي) من نتائج، مخيبة للآمال عند المحكات والاختبارات، فكيف بالأزمات.

ولكن القدرة على إدارة النفس في المواقف الصعبة، والتحكم فيها، تخضع لقانون آخر بالإضافة إلى قانون العادات، حيث إن اختبار النهر قد كشف للمقاتلين مستوى التأهيل الذي أفرزته عاداتهم في التعامل مع المواقف.

ومع أن الذين جاوزوا النهر قد أثبتوا امتلاكهم القدرة على قيادة ذواتهم، والتحكم في رغباتهم وحزمهم على أنفسهم، ولكن إلى أي مدى يمكن للحزم أن يبقى سيد الموقف؟

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٣ ص ٢٥١.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٤٩.

لقد نظر الجنود البالغ عددهم ثلاثمائة رجل تقريبًا إلى العدو البالغ عددهم قرابة العشرين ألفًا بكل عتادهم الحربي فقاسوها عدديًا وعسكريًا فخرجوا بهذه النتيجة ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ لكن ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وهذا يعني أن للصبر تركيبة وجدانية وإيمانية تكمّل الحزم والجدية. حيث تؤدي القيم دورها، وتظهر قوتها بشكل فاعل في ضَخّ المعاني التي تجعل من العجز قدرة، والضعف قوة، والتشاؤم تفاؤلًا، إنها تهندس التصورات وتخضع الوجدان لتلك التصورات، فتجعل من الجوارح ماردًا يتحدى الصعاب، ولهذا برزت ميزة الذين يحملون تأهيلا قيميًا (إيمانيًا) حين قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

فالذين يحملون في أنفسهم الظن الحسن بالله، ويحملون إدراكًا راسخًا بأن القضية مع الله، وأن هناك معادلة تتجاوز كل معايير ومقاييس الدنيا، وهي رابطة العبد بربه، حاجةً إليه وتوكلًا عليه، واعتصامًا به، ويقينًا بوعده، حيث يظنون ظن يقين أنهم ملاقوه، وكأنهم يرونه، ولو لم يكن يرونه حقيقة، لكنهم يعيشون مراقبته لدرجة أنه تعالى أعظم ما في قلوبهم، لقد سلّموه قيادة أنفسهم فأصبحوا فوق مستوى التحديات. يعيشون المتعة في الألم، والكثرة في القلة، والقوة

في الضعف، لقد جعلوا الله مولاهم فيا لخسارة الذين لا مولى لهم.

حول هذا المعنى أيضًا يشير ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول: "وإذا تحرك سلطان العقل وقوي استعان بجيش الصبر، ولكن هذا السلطان وجنده لا يستقلان بمقاومة سلطان الهوى وجنده، فإن إشراق نور الهداية يلوح عليه عند أول سن التمييز وينمو على التدريج إلى سن البلوغ، كما يبدو خيط الفجر ثم يتزايد ظهوره، وكلها هداية قاصرة غير مستقلة بإدراك مصالح الآخرة ومضارها، بل غايتها تعلقها ببعض مصالح الدنيا ومفاسدها، فإذا طلعت عليه شمس النبوة والرسالة وأشرق عليه نورها رأى في ضوئها تفاصيل مصالح الدارين ومفاسدهما، فتلمح العواقب"[1]. ويعنينا هنا من كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الهداية تحدث في النفس إدراكًا يتجاوز إدراك مصالح الدنيا من حياة أو موت أو خوف لما في الآخرة ولقاء الله.

تأمل حين قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ إنها تجربة لم يخوضوها بسيوفهم، لكنهم خاضوها في معركة النفس، عاشوها ذهنيًا، ووجدانيًا فقبلوها، واكتسبوا خبرة دفع ثمنها غيرهم من الصابرين قبلهم، وهكذا يصنع الإيمان مع معطيات الوحي، حيث يكتسب

(١) ابن القيم، عدة الصابرين، ص ٢.

الفرد من هذه المعطيات تجارب تبلغ من العمق مثلما تبلغه الممارسة الشخصية، وذلك أن نور الوحي هو أعلى مصادر المعرفة على الإطلاق.

قالوا لإخوانهم: كل ما عليكم هو الصبر ولكنه الصبر بالله ولله، الصبر هذه المرة ليس الصبر على نزعات الهوى والرغبات كما هو الحال في مجاوزة النهر، ليس تحملا لضغط الهوى ودواعي التراجع.

هذه المرة الصبر على نزعات الشبهات والفكر الذي يفت في العضد ويرجف بالقلوب، إنها الأفكار السلبية التي تجهض رصيد الصبر، وكان ذلك متمثلا في قولهم: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، وقول الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[1]. حيث تدرك النفوس أن المصدر الوحيد للصبر الذي لا ينضب هومن عند الله، منه وحده نستمد الصبر، وكلما كان الاتصال به أعمق كان ينبوع الصبر أكثر تدفقًا، ولقد وعى المجاهدون مع طالوت هذا المعنى حيث قال الله عنهم: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[2].

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٠.

لقد شاهدوا عيانًا تفوق جيش جالوت وعدده، لكنهم كانوا هذه المرة أكثر معرفة بقيمة الصبر، وعلموا أن هذه المعركة ليست معركة عَدَد بل معركة عُدَّة وأن أفضل عدة هي عدة الإيمان والصبر والاعتصام بالله.

إن المؤمنين يخوضون معركة مع النفس قبل معركتهم مع العدو، وحين ينتصرون في معركة النفس تصبح معركة العدو بالنسبة لهم لعبة من ألعاب الرعب، وألعاب الرعب مهما كانت مرعبة لن تخرج عن كونها لعبة. حين يخرج الصابرون من الأزمات منتصرين فإنهم يتذكرون كل ما مر بهم، وكأنهم دخلوا أحد ألعاب الرعب، التي تسمع فيها صراخ الناس، ولكن سرعان ما تتوقف اللعبة ويخرجون منها يضحكون!! بل وينصحون غيرهم بعدم الخوف منها، لأنهم اكتشفوا أنها مجرد لعبة.

لقد طلبوا أن يفرغ الله عليهم الصبر؛ فلماذا؟

- هناك مثبطات تثور في النفس تهدر رصيد الصبر وتزعزع الثبات.
- قد تخور القوى، وتتعب الأبدان من طول المجالدة، فتبدأ الأفكار التي لا تخدم الهدف في البروز، فيتسلل اليأس للنفوس، وهنا تقع خسارة معركة النفس.
- هناك أحداث ومفاجآت غير متوقعة وقد لا تجد النفس

تفسيرًا مقبولا لها، فليس لها سوى الصبر، والصبر هنا يكون في صورة السكينة والتحمّل، للخروج من ضغطها النفسي الذي يزعزع دواعي الثبات.

وهذا يذكرنا بما طلبه السحرة من الله حين هددهم فرعون فلم يخشوا الموت بل خافوا مع شدة التعذيب ألا يثبتوا، وهذا السبب هو ما فسر به القرطبي قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾[(١)]. الإفراغ الصب، أي اصببه علينا عند القطع والصلب[(٢)].

- ثبات الأقدام من الفئة القلية، سلوك غير متوقع في نظر الفئة الكثيرة الواثقة من النصر السريع، وكسر التوقع من أقوى الضربات النفسية في الحروب، كما أن هذا الثبات بالنسبة للفئة القليلة يعد حافزًا قويًا يزيد من ثقتهم في نتيجة الصبر، والتصبر حتى اللحظة الأخيرة.

لهذا فإن على كل مبتلى أن يحفز نفسه حين يرى أنه قضى مدة من عمر الأزمة وهو لازال صابرا. فإن هذا يقوي عزيمته للاستمرار، فكما صبر على ما مضى فإن ربه سيعينه على ما بقي.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٢٦.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٧ ص ٢٦١.

لقد اجتهد المؤمنون في إتقان المقدمة (الصبر) فوفى الله لهم النتيجة (والله مع الصابرين) وهذا ما حدث:

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

إلى متى نصبر؟

لقد أرشد الله نبيه ﷺ للصبر وحدد له مدى ذلك الصبر فقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[2]، إذن:

- موعد الصبر هو في علم الله، وذلك لأننا نصبر لله ونربط نتائج صبرنا بمراد الله ورضاه عنا، وننتظر عواقب الصبر منه تعالى وليس ممن نصبر عليه. ومن يصبر لا ينبغي له أن يربط أمد الصبر بردود أفعال الناس معه خلال صبره.
- حين يكون الله مَنْ يُنْتَظَرُ منه الجزاء، فلا يضرنا سوء رد فعل الناس وقلة شكرهم، فالله خير الشاكرين.
- إن من يدير ذاته بشكل جيد يستطيع أن يمنحها حصانة ومتانة ضد كل المحبطات، وهو المرشح للبقاء نشطًا، ومرنا، مهمًا تقلبت الظروف وتخلفت التوقعات.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥١.

(٢) سورة يونس، آية: ١٠٩.

- عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفذ ما عنده فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر»[1].

- لأن من يملك الصبر فقد ملك القدرة على الاستغناء عن كل ما تتمناه نفسه ولا سبيل إليه.

- وعن عمرو بن تغلب: أن رسول الله ﷺ أُتي بمال أو بسبي فقسمه، فأعطى رجالًا وترك رجالًا فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال: «أما بعد فوالله إني لأعطي الرجال وأدع الرجال والذي أدع أحب إلي من الذي أعطي ولكن أعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، فيهم عمرو بن تغلب»[2].

وهذا واضح في أن من فقد الصبر فليس له قدرة على الاستمرار في مسير الحق ما لم تحقق له رغباته، بينما يمكن لمن رزقه الله إيمانا به ويقينا بما عنده أن يتلذذ

---

(١) البخاري، كتاب الزكاة، برقم ١٤٦٩.

(٢) البخاري، كتاب التوحيد، برقم ٧٥٣٥.

بالحرمان ولا يجد صعوبة في الصبر عن رغباته، ولهذا أردف راوي هذا الحديث بعد روايته له فقال: "فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم[1]" معبرا عن شدة فرحه بحرمانه من (المال) عنما ذكر له رسول الله ﷺ. ما في قلبه من الإيمان والخير مقابل فرحة الناس بحمر النعم.



(١) حمر النعم هي الإبل وهي من أغلى ما يمتلكه الناس.

الخاتمة

في نهاية هذه المقالات أتوجه إلى الله جَلَّ وَعَلَا أن يغفر لي زللي وخطأي، وأن ينفعني بما فيها، وأن يجعلها نافعة لخلقه، وأن تكون سببا في دلالة الخلق على الله ليعبدوه وحده لا شريك له، وأن يعلي شأن دينه وسنة نبيه، ومن سار على هداه، مهتديا بهدي السلف الصالح الذين، هم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. وأن يجزي من أعانني وسددني في هذا العمل خير الجزاء، وأن يرزقه هدى يبلغه جنته.... آمين.



فهرس المحتويات





إلى ... الذين قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل

إلى ... الذين لا ناصر لهم إلا الله

إلى ... الذين يبيتون وحاجتهم في صدورهم

إلى ... الذين يقولون متى نصر الله

إلى ... الذين تحملوا رسالة الخير

د. صالح الدقلة



- الوعظ والإرشاد



